عالم المولد

٢
١٩٨٢

مجلة تراثية فصلية

WWW.ATTAWEEL.COM

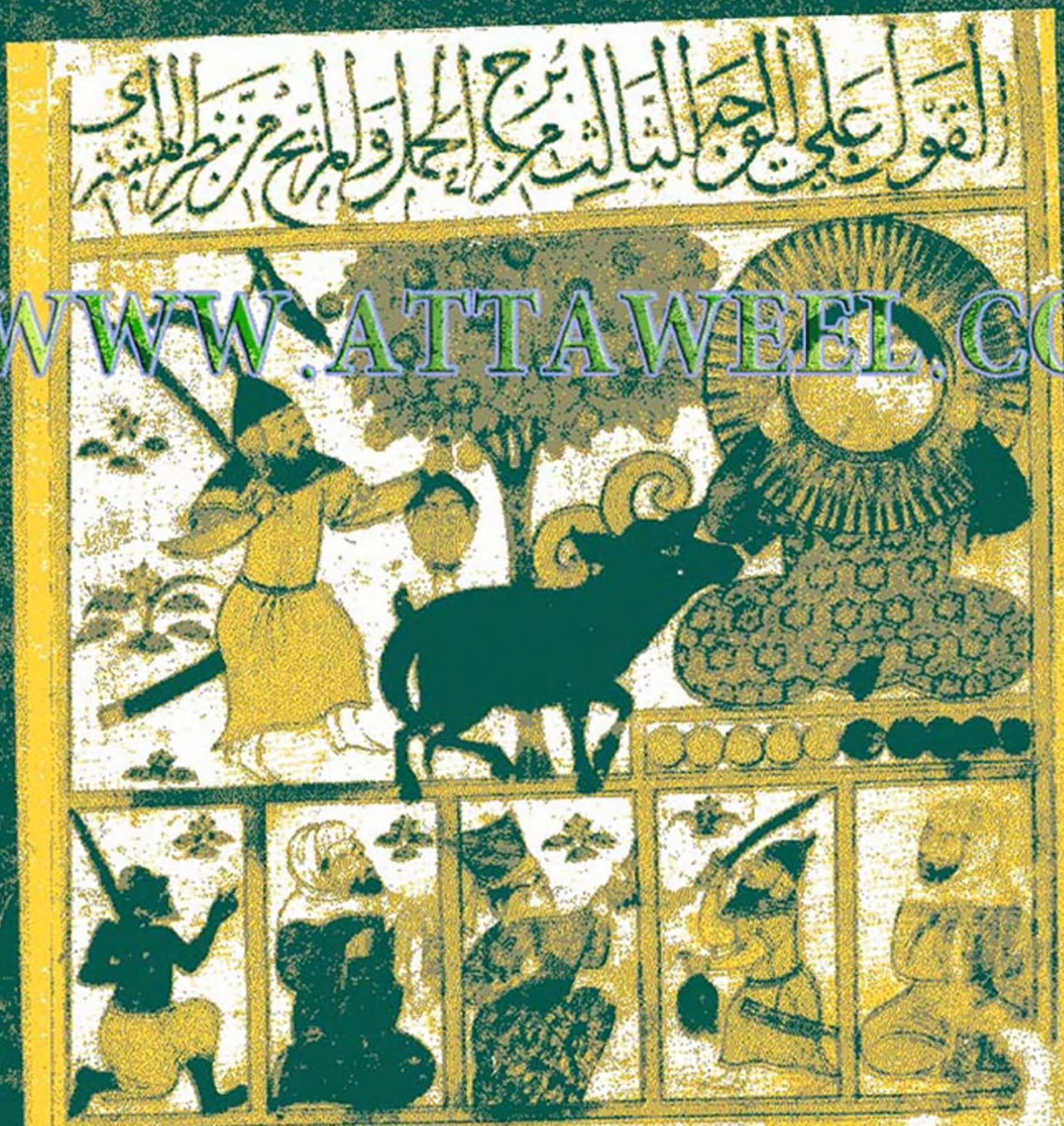

أسباب الولادة وكيفيتها

السخرية في أدب الجاحظ

بقلم

ضياء عكاري الرافعي

بيروت ـ الجمهورية اللبنانية

تمهيد

كثيرة هي الابحاث التي تناولت ادب الجاحظ بالدرس والتحليل ، والمت بالمؤثرات العامة في شخصية هذا الكاتب ؛ وهي على كثرتها واتساع اهدافها ومراميها لم يفت كتابها القدامى والمحدثون ان يجمعوا على ظرف ابي عثمان وقبح منظره وسواده .

وهكذا اقترن اسم الجاحظ في حياته وبعد مماته في كتابات دارسيه وتعليقات حساده بالبشاعة من جهة ، والميل الى الهزل والسخرية من جهة اخرى ، فما من كتاب يتحدث عنه الا ويشير الى جحوظ عينيه ودمامة وجهه وقصر قامته وسواد لونه وقد قيل فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخا « ثانيا »
ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه
وهو القذى في كل طرف لاحظ(١)

ومهما يكن من امر هذا الوصف ، واعتراف الجاحظ بقبح منظره حين قال (ذكرت للمتوكل لتاديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني) (٢) فان ابا عثمان لم يكن بالرجل المكروه الثقيل الظل ، وانما كان من ظرفاء القوم يستهويه المرح والمزاح فيعابث الاصحاب والخلان وتتملكه الدعابة ، فيتندر حتى على نفسه ، ويرصع كتبه بطرائف ونوادر وفكاهات تشيع البهجة والسرور في نفوس معاصريه وقرائه .

الاشتقاق اللغوي لكلمة سخرية ومدلولها

يجدر بنا ما دمنا في معرض الحديث عن السخرية في ادب الجاحظ ان نحدد مدلول هذه الكلمة اللغوي ؛ كما ورد في المعاجم والقواميس ، ومعاني بعض الكلمات التي تدور في فلكها كالتهكم والدعابة والهزل .

اما **السخرية** : فالفعل منها سخر ، واللغة الفصيحة سخر منه ، وبها ورد القرآن ، قال الله تعالى (سخر الله منهم) وقال الفراء يقال سخرت منه ولا يقال سخرت به واجاز الاخفش كلاهما وقال النووي الافصح الاشهر سخر منه وانما جاء سخر به لتضمنه معنى هزىء . وفي الكتاب العزيز (واذا راوا آية يستسخرون) قال الرماني: يدعو بعضهم بعضا الى ان يسخر . وسخر واستسخر كعجب وتعجب واستعجب والاسم السخرية . قال تعالى (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اى ان تستجهلونا اى تحملونا على الجهل على سبيل الهزء فانا نستجهلكم كما تستجهلوننا ، وانما فسر بالاستجهال هربا من اطلاق الاستهزاء عليه تعالى (٣) .

(١) الفرق بين الفرق لابي منصور البغدادي ص ١٧٧ .
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٤١ .
(٣) تاج العروس ج ٢ ص ٢٠ .

WWW.ATTAWEEL.COM

اما **التهكم** : فيقصد به قديما وضع سؤال مع تصنع الجهل . والغرض من ذلك تخليص العقول من العلم الزائف واعدادها لقبول الحق . ويقصد به حديثا تاييد راي بما يعارضه بقصد السخرية(٤) .

والدعابة : المزاح وفي الحديث انه (صلعم) قال لجابر رضي الله عنه وقد تزوج (ابكرا تزوجت ام ثيبا . فقال : بل ثيبا . قال : فهلا بكرا تداعبها وتداعبك) والدعابة اللعب(٥) والهزل : نقيض الجد . هزل في الامر كضرب ومرح وفي التنزيل (وما هو بالهزل) . قال ثعلب اى ليس بهذيان . وفي التهذيب اى ما هو باللعب . وفلان يهزل في كلامه اذا لم يكن جاداً ، تقول اجاد انت ام هازل . والهزالة الفكاهة (٦) .

بعد هذا العرض الدقيق لمدلول تلك الكلمات وطبيعة الفوارق اللغوية الدقيقة بينها ، نستطيع القول ان ادراجها تحت مفهوم السخرية امر منوط بالاستعمال والقصد فقد يسخر الرجل من نفسه واصحابه ومجتمعه بمزج الجد بالهزل وبالتهكم الجارح او الدعابة اللطيفة المحببة . وبناءاً على ذلك سنعرض للسخرية عند الجاحظ لنتبين اسبابها والدوافع التي حركته لاصطناع هذا اللونمن التعبير واثره في ادبه وعصره والغاية المرجوة منه .

اسباب السخرية عند الجاحظ وابعادها

ان سخرية ابي عثمان في الغالب تصدر عن نفس مرحة متفائلة بالحياة وطبيعة لاتعرف الحقد واللؤم ومزاج يميل الى الاعتدال ، فيخلط الجد بالهزل ، ويتوسط بين متطرفين التقصير والافراط على سنة صاحب المنطق ، والمعتزلة (وللضحك موضع وله مقدار فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ولم يعيبوا المزح الا بقدر) (٧) . ويقول : (ونحن نعوذ بالله ان نجعل المرح في الجملة كالجد في الجملة بل نزعم ان بعض المزاح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح)(٨) . لكن سخريته سرعان ما تتحول الى نقد لاذع وتجريح وغمز ولمز حين يتعلق الامر بشعوبية حاقدة تتستر تحت شعار اهل التسوية ، تنفث السموم وتحوك المؤامرات والدسائس للقضاء على الكيان العربي واستئثار العناصر الفارسية بالسلطة . (تفهم عني ـ فهمك الله ـ ما انا قائل في هذا واعلم انك لم تر قوماً قط اشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى علىدينه ولا اشد استهلاكا لعرضه ولا اطول نصباً ولا اقل غنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم جشوم الحسد على اكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الثائرة وتسعر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق كل ملة وزي اهل كل لغة وعللهم على اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما علة كل شيء من ذلك . ولم اجتلبوه ؟ ولم تكلفوه ؟ لاراحوا انفسهم ولخفت مؤونتهم على من خالطهم) (٩) .

وسخرية الجاحظ ليست مظهراً من مظاهر النزعة الفنية او الروح النقدية في ادبه فحسب بل هي طبيعته التي ركب فيها حب الضحك والميل الى نقد العيوب بابتسامة مرحة وتهكم مرير يعتمد التصوير الحسي حينا والتوكا على النادرة والمعنى الفلسفي والديني او الصورة الادبية والكلمة الجارحة ليمزق ثوب العلم والادب والكبر والغطرسة الفارغة عن مهجويه فيبرزهم للناس في صور كاريكاتورية مضحكة ، والفاظ ظاهرها مديح ، وباطنها هجاء واستهزاء .

وبرزت روحه الساخرة في كل كتبه ورسائله فقلما يخلو كتاب له حتى ما كان منها ذو موضوع علمي من نادرة تروى او طرفة تحكى ونكتة تلقي الكلام على عواهنه فتنشط القارىء وتذهب بمله وسأمه (وان كنا املنناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة المروجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاننا سننشطك ببعض البطالات وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريدة فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السآمة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماماً لقوتك) (١٠) .

وقد تنبه ابن قتيبة لشيوع هذه الظاهرة في كتب الجاحظ فرماه من اجلها بنقد لاذع (وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ) (١١) .

---

(٤) الصحاح في اللغة ج ٢ ص ٦٤٤ .
(٥) لسان العرب طبعة مصر ، ج ١٦ : دعب .
(٦) تاج العروس ج ٨ ص ١٦٧ .
(٧) البخلاء ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٠ طبعة دار الكتب الشعبية .
(٨) التربيع والتدوير تحقيق شارل بلات ص ٦٧ـ٦٨ .
(٩) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢ تحقيق عبد السلام هارون .
(١٠) الحيوان ج ٣ ص ٥ ج ١ ص ٩٤
(١١) تاويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧١ .

والحقيقة ان الجاحظ لم يقصد استمالة الصبية والسكارى الى ادبه فالشهرة لا تعوزه ورواج مؤلفاته عند هؤلاء ليس موضع فخر واعتزاز ، لكن ، ماذا يصنع في طبع غلب عليه فاوقعه في تلك المزالق ودفعه الى فلسفة الضحك والاضحاك بادلة تنقل تلك الظاهرة من بعد عملي تجريبي الى بعد نظرى يغنيه البرهان وتدعمه الحجة ؟ . (ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء تبين حجة طريفة او تعرف حيلة لطيفة او استفادة نادرة عجيبة وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبني كانه يضحك ضحكاً . وقد قال الله جل ذكره (وانه هو اضحك وابكى وانه هو امات واحيى) فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً وفي مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب لان الضحك اول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته) (١٢) .

ويهمنا في هذا الشاهد قول ابي عثمان أن الضحك شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب فهذا القول على بساطته هو المفتاح الحقيقي لفهم دلالة السخرية في ادبه واسباب انفراده بنظرية جديدة في المعرفة خالف فيها علماء الكلام في عصره من معتزلة وغير معتزلة . فالمعرفة في رايه تقع للانسان بالطبع والناس مسخرون لطبائعهم في امور معينة لا يستطيعون التخلص منها (ولولا ان الله تعالى اراد تشريف العالم وتربيته وتسويد العالم ورفع قدره وان يجعله حكيما بالعواقب عليما لما سخر له كل شيء ولم يسخره لشيء ولما طبعه الطبع الذى يجيء منه اريب حكيم وعالم حليم) (١٣) . وهم الى جانب ذلك مخيرون في امور اخرى تتعلق بالامر والنهي والاعتقاد والاخلاق (وبعض الناس وان كانوا مسخرين للحياكة فليسوا بمسخرين للفسق والخيانة والصدق والامانة وقد يكون الانسان مسخراً لامر ومخيراً في آخر ولولا الامر والنهي لجاز التسخير في دقيق الامور وجليلها وخفيها وظاهرها ، ولان بني الانسان لم يسخروا للمعصية كما لم يسخروا للمفسدة وقد تستوى الاسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومراشد الدين .) (١٤) .

وقد اثار الجاحظ بنظريته ان المعرفة تقع للانسان بالطبع جدلا كبيراً بين المتكلمين وعرض نفسه لحملة عنيفة شنها عليه هؤلاء العلماء امثال القاضي عبد الجبار في كتابه المغني لكن هذا الجدل لا يعنينا من قريب او بعيد .

ما يهمنا من نظرية ابي عثمان وعي الجاحظ الدقيق لدور الطبع في حياة الانسان وقناعته التامة بظرفه الذى نظر عليه . اما خلقته المشوهة،وتمرسه بالحياة ، واختلاطه الشديد بالناس من مختلف الطبقات ، وادراكه لصور التناقض في مجتمعه ، وصلاته بكثير من العلماء الظرفاء الذين احتفلوا بالدعابة ، وجعلوها وسيلة من وسائل الترفيه عن انفسهم كابي عبيدة معمر ابن المثنى وابي العيناء والجماز ، ونوادره عن نفسه (نسيت كنيتي ثلاثة ايام حتى اتيت اهلي ، فقلت لهم بم اكنى ؟ فقالوا بأبي عثمان) (١٥) . فامور لا يجدر بالدارس تجاهل اثرها في تكوين شخصية الجاحظ لكنها في الوقت نفسه ليست السبب المباشر في ميله الى النكتة واحتفائه بها في كل الاوقات ، فليس كل قبيح ظريفا ، وقد تكون البشاعة عند بعض الناس مجلبة للهموم والآلام ، وسبباً من اسباب الطيرة والتشاؤم ، ومخالطة الظرفاء لا تورث الظرف ، انها تحببه الى النفس ليس الا . ولو لم يكن الجاحظ مطوعاً على الضحك والتهكم والبعد عن العبوس والانقباض لما ضحك واضحك القوم في مجلس القاضي احمد بن ابي دؤاد وكان الناس يومذاك يؤخذون بالظنة والشبهة فيقادون للموت ويزجون في تنور حديد فيه مسامير، وها هو يعتذر عن اختفائه وهربه فيقول (خفت ان اكون ثاني اثنين اذ هما في التنور) (١٦) . ثم يساله القاضي عن تاويل الاية القرآنية (وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة. ان اخذه اليم شديد)(١٧). فيقول تلاوتها تاويلها اعز الله القاضي . فقال جيئوا بحداد . فقال : اعز الله القاضي ليفك عني او

---

(١٢) البخلاء ج ١ ص ٢٨-٢٩ تحقيق طه الحاجرى والبخلاء ص٩ طبعة دار الكتب الشعبية

(١٣) آثار الجاحظ (حجج النبوة ص ١٧٧) .

(١٤) آثار الجاحظ (حجج النبوة) ص ٢٥٤

(١٥) معجم الادباء ج ١٦ ص ٧٥ .

(١٦) الروائع لفؤاد افرام البستاني نقلا عن ياقوت في ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (مارغليوث) ج ٦ ص ٥٧ .

(١٧) القرآن سورة هود الاية ١٠٢ .

ليزيدني . فقال : بل ليفك عنك . فجيء بالحداد ، فغمزه بعض اهل المجلس انيعنف بساق الجاحظ، ويطيل امره قليلا ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن ابي دؤاد واهل المجلس منه وقال ابن ابي دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضرا (انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه)(١٨) .

اضف الى ذلك اعتقاده الراسخ بمذهب الاعتزال وقد ثقفه صغيراً في بيت مويس بن عمران حيث احتك بائمة الفرق الكلامية والادباء والعلماء والفلاسفة ، واستمع الى ابي الهذيل العلاف وثمامة ابن اشرس النميرىوالنظام وبشر بن المعتمر ويعقوب ابن اسحق الكندى ، وهم يشققون المعاني ودعى ودوّن ما كانوا يتناقشون به منالقضايا الاجتماعية والدينية والفلسفية والكلامية ، فتعلم اصول الجدل واتقن قوة البرهنة على المسائل المعروضة للبحث حتى نمت مواهبه واشتد عوده ، فوقف سخريته وظرفه وما اوتي من علم وكياسة وذكاء للدفاع عن المعتزلة وتصدى لاصحاب الفرق الباقية بالنقد والتجريح والتهكم ، فهو يستقصي ما عندهم من اخطاء ويفض طرفه عن الجوانب الصحيحة لدى كل فرقة منهم ، ويترك لقلمه العنان ، فيسخر ويتندر بطريقة عدائية ، لان جميع الفرق في نظره ضالة مضللة ، والمعتزلة وحدهم على حق .

سخريته من الفرق والملل :

يظهر الجاحظ في حديثه عن اهل الجماعة ساخراً بارعا يتفنن في نعوتهم واوصافهم فيطلق عليهم عدة تسميات ، فهمعنده العامة والنابتة والحشوية والبكرية والعثمانية ، ويرسم لاحمد بن حنبل امام المحدثين في عصره صورة غير مألوفة في تهربه من الاقرار بباطل المعتزلة كلما ظهرت حجة القاضي احمد بن ابي دؤاد بقوله ليس انا متكلما . (قال احمد بن ابي دؤاد : اليس شيء الا قديم او حديث . قال : نعم . قال او ليس القرآن شيئا . قال : نعم . قال : اوليس لا قديم الا الله . قال : نعم . قال : فالقرآن اذن حديث . قال : ليس انا متكلما .)(١٩)

ولا يكتفي ابو عثمان بهذا القدر من التهكم المر فيصور المشبهة الذين حرضوا العوام على المتكلمين واغروهم باستعمال العنف . (ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان)(٢٠) . ويقول (ولو برز عالم على جادة منهج وقارعة طريق فنازع في النحو واحتج في العروض وخاض في الفتيا وذكر النجوم والحساب والطب والهندسة وابواب الصناعات لم يعرض له ولم يفاتحه الا اهل هذه الطبقات ولو نطق بحرف في القدر حتى يذكر العلم والمشيئة والاستطاعة وهل خلق الله الكفر وقدره او لم يخلقه ولم يقدره لم يبق جمّال اعثر ولا بطال غث ولا خامل غفل ولا غبي كهام ولا جاهل الا وقف عليه ولاحاه وصوبه وخطاه واستقوى امثاله فاشعلوها فتنة واضرموها ناراً) (٢١) . وكيف رضخ هؤلاء الحشوية للسلطة وصانموها وتظاهروا بالانصياع الى الحق بعد ان نصر الخليفة المعتزلة وضرب على ايدي النابتة (وقد صاروا بعد السب يحفون وبعد تحريم الكلام يجالسون وبعد التصامم يستمعون وبعد التجليح يدارون)(٢٢) .

واكثر الجاحظ تهكمه فيالمسائل التي ياخذون فيها بالجبر(٢٣) .

اما موقفه من سوى اهل الجماعة فينطوي على سخرية مريرة بمعتقداتهم ورجالها في عصره ؛ وقد دفعه كرهه لهم الى تاليف كتاب اسماه فضيلة المعتزلة يرد فيه على هشام بن الحكم وغيره من المتكلمين البارزين . وهذا الكتاب كما يقول ابو الحسين الخياط المعتزلي في الانتصار يشتمل على ابواب متعددة تتعلق بفضائحهم في جنايتهم على ولد رسول الله عليه السلام ، فقد منعوهم من طلب العلوم ورهموهم ان الله يلهمهم اياها الهاماً(٢٤) . ووصفوا ربهم بصفة الاجساد المحدثه اذ زعموا انه صورة وجوارح وآلات وانه تبدو له البدوات في افعاله(٢٥) واذا فعل فعلا وخبر بخبر ثم تبين له انه ليس بصواب بدا له فيه وانتقل عنه الى غيره (٢٦) . (ولم

---

(١٨) الروائع فؤاد افرام البستاني نقلا عن ياقوت في ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (مارغليوث) ج ٦ ص ٥٨-٥٩ والانباري في نزهة الالباء في طبقات الادباء ٢٥٧-٢٥٨ .
(١٩) آثار الجاحظ ص ٢٧٤ .
(٢٠) العثمانية ص ١٩ .
(٢١) العثمانية ص ٢٥٤ .
(٢٢) رسالة في نفي التشبيه ج ١ ص ٢٨٨
(٢٣) النابتة ج ١ ص ٢٠ .
(٢٤) كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد لابي الحسين الخياط المعتزلي ص ١١٠ .
(٢٥) نفس المصدر ص ١١٠ .
(٢٦) نفس المصدر ص ٩٥ .

يرد الجاحظ ان يلزم جميع الشيعة ذنب من غلا منهم وافرط وانما اراد ان يخبر ان الغلو مشتمل على اجناس من الكفر لا يشتمل عليه مذهب فرقة من فرق الامة لانك اذا نظرت في مذهب الخوارج مذهبا مذهبا لم تجد فيهم مشبها ولا واصفا لله بما وصفته به الغلاة ولا قائلا بالبداء ولا مؤمنا بالرجعة الى دار الدنيا قبل القيامة ولا رادا للقرآن وكذلك المرجئة لاتجد فيهم من التخليط ومخالفة القرآن والطعن على السنن ما تجده مع الغلاة)[٢٧] .

والجاحظ فيهجومه العنيف على الغلاة لايترك وسيلة منوسائل الهزء والسخريةوالتقريع الاويلجأ اليها وخاصة في رسالة التربيع والتدوير التي وجهها الى احمد بن عبدالوهاب (وخبرني ما عنقاء مغرب وما ابوها وما امها وهل خلقت وحدها ام من ذكر وانثى ولم جعلوها عقيما ؟ وجعلوها انثى ؟[٢٨]

ويبلغ ذروة تهكمه عندما يتناول فكرة الامامة فيقول للكاتب المربع المدور (وحتى لو كنت امام الغلاة لقتلت في طرفة ولو قتلت في طرفة لهلكت الامة لانك رجل لا عقب له والامامة اليوم لا تصلح في الاخوة ولو صلحت في الاخوة كانت تصلح في ابن العم ثم انها دنت من الارحام بعد ذلك فصارت لا تصلح الا في الولد ، وفي هذا القياس انها بعد اعوام ، لا تصلح الا ببقاء الامام نفسه آخر الابد ، فاهد اني الان من خالص التوتياء ؟ كما اهديت اليك باب التناسخ)[٢٩] .

ويكشف الجاحظ بلفتة بارعة اثر الثقافة الكلدانية الاسطورية في عقيدة الغلاة الدينية وخاصة المتعلقة منها بعلم الفراسة حين يسأل (وما تقول في اكسير الكيمياء ، وما تقول في كيموس الصنعة ؟ وما تقول في الزجر ؟ وما تقول في الفراسة ؟ وما تقول في قرض الفارة ؟ وما تقول في الحاح الخنفساء ؟ وما تقول في دوائر الراس ؟ وفي اوضاح الخيل ، وفي النمس ، والسنور وفي الديك الافرق والسنور الاسود ، وفي البول في النفق ، وفي الاطلاع في عادى الآبار ، وفي النوم بين البابين ؟) (٣٠)

(٢٧) كتاب الانتصار لابي الحسين الخياط المعتزلي ص ١١٢ .
(٢٨) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٠٢ .
ورسالة التربيع والتدوير تحقيق فوزي عطوي ص ٣٦ .
(٢٩) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٢٤ ورسالة التربيع والتدوير .
(٣٠) نفس المصدر ٢٠٦ .

وابو عثمان في هذه الاسئلة يكشف بوضوح ما كان لاساطير الفرس وخلفيتهم الميتولوجية من اثر بين في تلوين الغلو بالوان غير اسلامية . ويبدو الجاحظ في هذه الرسالة رائداً من رواد فن الهجاء التهكمي النثرى فقد سبق في هذا الحقل الكاتب الفرنسي ربليه والكاتب الارلندى برناردشو .

ويجيب كاتبنا في رسالة التربيع والتدوير عن السبب الذى دفعه للتشهير بهذا الرجل السيء الطالع فالقضية ليست في كون احمد بن عبد الوهاب كاتباً لمحمد بن عبد الملك الزيات او انه من طبقة الكتاب بمقدار ما هي محصورة في مذهب الرجل . وفي هذا دلالة واضحة على مدى الخصومة العنيفة التي كانت بين المعتزلة وخصومهم .

وانطلاقا من مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يترفق الجاحظ ببطل رسالته فيدعوه الى جادة الصواب (فان اردت ان تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها من خرافة وما فيها من محال وما فيها من صحيح ، وما فيها من فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي[٣١]) .

ويسند الاشعرى الى الجاحظ في مقالات الاسلاميين قوله في هشام بن الحكم (وقال هشام في ربه في عام واحد خمسة اقاويل ، زعم مرة انه كالبلورة ، وزعم مرة انه كالسبيكة ، وزعم مرة انه غيرصورة وزعم مرة انه يشبر نفسه سبعة اشبار، ثم رجع عن ذلك وقال هو جسم كالاجسام) [٣٢] .

اما **الخوارج** فلم يخصهم ابو عثمان ببحث طويل من ابحاثه كما فعل مع غيرهم من الفرق ولكنه اتى على ذكرهم في كتبه المختلفة وسخر من موقفهم حين كفروا الامام لانه قبل بالتحكيم ولم ينتبهوا الى حسن تدبيره في تلك المسالة (والناس حفظك الله وارشدك عن تدبير هذا الامام غافلون)[٣٣] .

ويروي الجاحظ عن شيخ من شيوخ الخوارج في كتاب الحيوان انه قال (العجب ممن يأخذه النوم وهو لا يزعم ان الاستطاعة مع الفعل) [٣٤] .

وفي هذا التعليق سخرية عميقة لا سبيل الى فهمها الا اذا عرفنا ان المعتزلة تذهب الى ان

(٣١) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٢٦ .
(٣٢) مقالات الاسلاميين للاشعري ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .
(٣٣) رسالة الحكمين ص ٥٧ .
(٣٤) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٣ ص ٩ .

الاستطاعة تسبق الفعل بينما يرى الخوارج ان الاستطاعة تكون مع الفعل .

ولم ينس ابوعثمان وهو المؤمن بنظرية الكمون والطفرة التي قال بها النظام ما للجبرية من آراء مضحكة ومواقف متهافتة في انكارهم للكمون وقولهم انه يؤدي الى الالحاد وانكار وجود الله فيقول مداعبا ضرار بن عمرو والجهم بن صفوان (ان ضرار بن عمرو قدجمع فيانكاره القول بالكمون الكفر والمعاندة لانه كان يزعم ان التوحيد لا يصح الا مع انكار الكمون وان القول بالكمون لا يصح الا بأن يكون في الانسان دم وانما هو شيء تخلق عند الرؤية) (٢٥) . ويعلق كاتبنا قائلا (ومن زعم ان التوحيد لا يصح الا بالا يكون في الانسان دم والا بان تكون النار لا توجب الاحراق والبصر الصحيح لا يوجب الادراك فقد دل على انه في غاية النقص والغباوة او في غاية التكذيب والمعاندة) (٢٦) .

وينبغي ان لا نستغرب هجوم الجاحظ على الجبريين وما فيه من اتهام لهم بالنقص والمعاندة والتكذيب والغباوة ، فالمسألة ببساطة تؤدي الى امر خطير في رايه ذلك ان انكار الكمون يهدم نظرية الطبائع من اساسها .

وهكذا كان ابو عثمان ينتقد ويسخر ويتهكم مبينا مواضع الضعف في كل مذهب بعقل راجح ومنطق سليم وثقة بالنفس دفعته الى التندر على بعض اقوال ارسطو وشيوخ المعتزلة كابي الهذيل العلاف والنظام والمسجديين من اصحاب الجمع والمنع الذين عقدوا الحلقات في المساجد لتدارس اخبار الاشحاء وتسقط نوادر البخلاء وذوى الاقتصاد في النفقة (وقد ذكر ارسطو طاليس في كتاب الحيوان انه قد ظهر ثور وثب بعد ان خصي فنزا على بقرة فاحبلها ولم يحك هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل) (٢٧) .

ولا يكتفي مترجمنا بعد تطبيق مبدا السماع واسناد الخبر لرواته ــ فالعهدة على الراوي ــ حين يشك بمتن من المتون لا تدعمه معاينة او تجربة ولا يقبل به عقل حصيف باظهار الشك فحسب مهما كانت منزلة الراوى بل يسخر منه سخرية لاذعة مرة ويجرح دعواه بكلام قارص . (وقد اكثر في هذا الباب ارسطو طاليس ولم اجد في كتابه على ذلك الا دعواه ولقد قلت لرجل من البحريين زعم ارسطو طاليس ان السمكة لاتبتلع الطعم ابدا الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي : ما يعلم هذا الا من كان سمكة او اخبرته به سمكة ، او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى ، فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل، وهذا كله جوابه) (٢٨) . وكذلك في قصة الحية ذات الراسين التي ورد ذكرها في كتاب صاحب المنطق فهو يعلق على قول الاعرابي حين ساله عنها فاجاب ان ذلك حق ، وانها تتغذى بفم ، وتتمشى بفم ، اما العض فانها تعض براسيها معا فاذا هو اكذب البرية (٢٩) .

ولا ندري لماذا لم يثر ابو عثمان في انتقاداته لرجال الحديث الى اهمية ما ابتكروه من منهج في الجرح والتعديل ونقد للسند والمتن رغم اعتماده مبدا السماع في ادبه ؟ انه عمى العصبية والهوى ، فقد كان الرجل يتتبع اوجه الخطأ وسقطات اصحاب الفرق للقدح والتشهير ، وليس للنقد الهادف البناء ويغمط ما في مذاهبهم من صواب وحكمة ومناهج صارمة ودقيقة في الدرس والتحقيق وقبول الحديث اورده ، وربما كان الامر في اعتبار السماع اصلا ضعيفا في نظره او شرا لا بد منه حين شاعت الرواية كمنهج واسلوب تحقيق في مختلف الدراسات .

اما ابو الهذيل العلاف فهو في نظره شخصية من اغرب الشخصيات يقدمه لنا في اغلب الاحيان في صورة رجل ساذج سليم الطوية والصدر موصوف بالغباء والبخل والبطنة يهزا به الناس وهو في غفلة لايدرى ما يجرى ويقال . وقد وصفه في كتاب البخلاء وصفا يبعث على الضحك والشفقة فقال (كان ابو الهذيل اهدى الى مويس دجاجة وكانت دجاجته التي اهداها دون ما كان يتخذ مويس ولكنه بكرمه وبحسن خلقه اظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها وكان يعرفه بالامساك الشديد فقال وكيف رايت يا ابا عمران تلك الدجاجة ؟ قال كانت عجبا من العجب فيقول وتدرى ما جنسها وهل تدرى ما

(٢٥) نفس المصدر ج ٥ ص ١٠ .
(٢٦) نفس المصدر ج ٥ ص ١٠ .
(٢٧) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٥ ص ٥٠٢ .
(٢٨) نفس المصدر ج ٦ ص ١٧ .
(٢٩) نفس المصدر ج ٤ ص ١٥٦ .

سنها فان الدجاجة انما تطيب بالجنس والسن وتدرى باى شيء كنا نسمنها ؟ وفي اى مكان كنا نعلفها ؟ فلا يزال في هذا والاخر يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه ابو الهذيل وكان ابو الهذيل اسلم الناس صدراً واوسعهم خلقاً واسهلهم سهولة فاذا ذكروا دجاجة قال اين كانت يا ابا عمران من تلك الدجاجة وان استسمن ابو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم قال لا والله ولا تلك الدجاجة وان ذكروا عذوبة الشحم قال عذوبة الشحم في البقر والبط وبطون السمك والدجاج ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج وان ذكروا ميلاد شيء او قدوم انسان قال كان ذلك بعد ان اهديتها لك بسنة وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة الا يوم وكانت مثلا في كل شيء وتاريخاً في كل شيء) (٤٠) .

بمثل هذه الكلمات والاشارات والمشاهد تفتن ريشة الجاحظ في تصوير صاحبه ــ وربما كان لاراء ابي الهذيل في الاستطاعة والتكليف وخلق القرآن ودخول الحيوانات الجميلة المنظر الى الجنة والقبيحة الى النار (٤١) . اثر كبير في موقف ابي عثمان من هذا المتكلم وتشهيره ببخله وغبائه ؛ اذ ينبغي ان نتذكر دائماً عيوب كاتبنا الجسدية التي ارهفت حسه الجمالي وجعلت مرحه تنفيساً لعقدة نفسية ــ استطاع ان يداريها بسخريته من نفسه ــ او مظهراً من مظاهر كبرياء مجروح على حد تعبير الدكتور جميل جبر (٤٢) .

وياخذ الجاحظ على استاذه النظام ما كان يقع فيه من سوء ظن وقياس على العارض فيسخر مما يذهب اليه من راى بالاجماع والامامة وقول بالصرفة ، ، فنظم القرآن ليس معجزة للنبي ودليلا على النبوة وكذلك بلاغته عند ابي اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وابي عيسى المزدار وهشام بن الحكم وانما الاعجاز في نظرهم كائن في الاخبار عن الغيوب الماضية والاتية ولولا ان الله صرف العرب عن معارضته لكانوا قادرين على ان ياتوا بمثله(٤٢) (وانما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذى كان قاس عليه . ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظناً) (٤٤) .

ومسالة نظم القرآن وغريب تاليفه وبديع تركيبه اهم حجة على النبوة (ان الحجة لا تكون حجة حتى تعجز الخليقة وتخرج من حد الطاقة)(٤٥) .

ويمضي ابو عثمان في التحليل والتعليل فيقول ان النبي (صلعم) تحدى العرب مع ما فيهم من الشعراء والخطباء والبلغاء وذوى الفصاحة واللسن قائلا لهم (ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواى وصدقتم في تكذيبي) (٤٦) ولم يستطع احد في عصر النبي او بعده ان يقلد القرآن ، ولو كان الامر في حدود طاقة البشر لاتى المشركون بسورة او آية تحاكي سور وآيات الذكر الحكيم واراحوا انفسهم من مغبة الحرب والقتال والتضحية بالارواح والاموال .

بتلك الحجج والادلة والبراهين يقبل ابو عثمان على مسالة اعجاز القرآن الكريم فيسفه آراء النظام ومؤيديه ويرميهم بسهامه وانتقاداته اللاذعة .

ويعتمد الجاحظ في سخريته من المسجدين اسلوب التورية اللفظية التي تضمن للقارىء عنصر الايجاز والتكثيف فهم اهل الجمع والمنع . وهذه العبارة ذات معنيين فهي تدل على جمع المال ومنع انفاقه من جهة وعلى ثقافة هؤلاء البخلاء العقلية والفلسفية من جهة ثانية . فمن شروط التعريف المنطقي السليم كما هو معروف ان يكون جامعاً مانعاً .

ولا يقتصر ابو عثمان في حديثه عن المسجدين والبخل والبخيل على نمط واحد في الفكاهة والدعابة فقد حوى كتابه البخلاء كما يقول فاروق سعد على كل ما للمضحك من وجوه فيه مضحك الشكل وفيه مضحك الحركة وفيه مضحك الكلمة وهذا كله بالاضافة الى كون البخل بحد ذاته موضوع سخرية فهو يدخل في مضحك الطباع(٤٧) .

سخريته من الفرق غير الاسلامية

يتميز موقف كاتبنا من الفرق غير الاسلامية بالسخرية والتهكم ومزج الجد بالهزل ايضا وما

(٤٠) البخلاء تحقيق طه الحاجرى ص ١٠٢ .
(٤١) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٤٢) الجاحظ ومجتمع عصره للدكتور جميل جبر ص ٢٠ .
(٤٣) آثار الجاحظ ص ٢٧٠ .
(٤٤) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٤٥) آثار الجاحظ ص ٢٦٢ (حجج النبوة) .
(٤٦) نفس المصدر ص ٢٦٤ .
(٤٧) مع بخلاء الجاحظ فاروق سعد ص ٩٧ .

رسائله وردوده على اهل الكتاب والدهرية والنحل الفارسية من مجوس وديصانية ومنانية وزنادقة الا شاهد بسيط على ما كان يعتمل في صدر الرجل من نوازع عدائية تجاه هذه الفرق واستخفاف بمذاهبهم المختلفة التي لا ترضي في رايه عقلا ولا تلائم فطرة او طبعا . **يقول في اليهود** (ومتى احببت ان تعرف في بني اسرائيل ونقص احلام القبط ورجحان عقول العرب واحلام كنانة فانظر بواديهم ورباعهم . وكيف لا تقضي عليهم بالغي والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة او معنى نبيه لا ممن كان في المبدا ولا ممن كان في المحضر ولا من قاطني السواد ولا من نازلي الشام ثم انظر الى اولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا هل غير ذلك من اخلاقهم وشمائلهم وعقولهم واحلامهم وآدابهم وفطنهم ؟ فقد صلح بنا كثير من امور النصارى وغيرهم وليس النصارى كاليهود ، لان اليهود كلهم من بني اسرائيل الا القليل فلم يضرب فيهم غيرهم ، لان مناكحهم مقصورة فيهم ومحبوسة عليهم فصور اولهم مؤاده الى اخرهم وعقول اسلافهم مردودة على اخلاقهم . (٤٨)

ويقول في **النصارى** بعد ان استفحل امرهم في ايام المتوكل وقاد بطارقهم الثورات في اطراف الدولة على الحدود المتاخمة لبلاد الروم ، مما دفع الخليفة الى اعلان موقف الخصومة منهم وكتب الفتح بن خاقان الى الجاحظ بايعاز من المتوكل يحثه للرد على هذه العصبة التي تعلقت بالاحاديث الضعيفة الاسناد وروجتها بين الناس لتفتن عوام المسلمين وتشككهم في دينهم الحنيف
(لولا متكلمو النصارى واطباؤهم ومنجموهم ما صار الى اغبيائنا وظرفائنا ومجاننا واحداثنا شيء من كتب المنانية والديصانية والمرقونية والفلانية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) ولكانت تلك الكتب مستورة عند اهلها ومخبأة في ايدي ورثتها)(٤٩) .

وابو عثمان كعادته دائما لا يكتفي بايراد هذه المسائل النقدية والتعليق عليها بالسخرية والتهكم بل يشير بكلمات واضحة الى ما كان لاهل هذه الملة من مكانة مرموقة في المجتمع العباسي .. كالذي ذكره في كتاب البخلاء على لسان الطبيب اسد بن جاني(٥٠) .

والجاحظ في حديثه عن **الدهرية** الذين ينكرون النبوة ويرونها هراء لا طائل تحته وينسبون الى الدهر ما ينسب اهل الديانات لله ويعبدون الكواكب والنجوم ويؤمنون بازلية المادة والزمان متهكم بارع لا تفوته النكتة والاشارة والايماءة (والدهري انه والبهيمة سيان ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والالم وانما الصواب فيما نال من المنفعة وان قتل الف انسان صالح لنيل الدرهم) (٥١) .

اما المجوس واتباع زرادشت والمنانية والديصانية والزنادقة من اصحاب الاثنين فقصتهم مع ابي عثمان قصة طريفة وسخريته منهم ومن الشعوبيين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون هذه المذاهب جارحة في الغالب ، وكاني بالجاحظ قد اقام نفسه رصداً للشعوبية كما يقول الدكتور شوقي ضيف فقد كتب عنهم في معظم كتبه ، وافرد لهم فصلا طويلا في كتابه البيان والتبيين ورمز بالزرع للحضارة والشعوبية وبالنخيل للعرب والبادية في كتابه الزرع والنخل وليست المناظرة بين صاحب الديك وصاحب الكلب في كتاب الحيوان سوى مناظرة بين العرب والشعوبيين .

اما الشعوبيون فرمزهم الديك الذى يرى في قراهم ومدنهم واما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم . هذا بالاضافة الى ماكتبه في ذم اخلاق الكتاب ومناقب انترك وكتاب البخلاء وفضل السودان على البيضان .

وهو في كل هذه الاثار عربي الهوى والقلب يذود عن حياض الامة باسلوب ساخر قوى العارضة والحجة ولغة طيعة توافيه بها سليقة عربية اصيلة .

وحماقات اصحاب الاثنين في نظر الجاحظ كثيرة ومتعددة فهم ينسبون الخلق الى مبدأين متناقضين ، مبدأ الخير ، ومبدأ الشر ويزعمون ان البشر من ولد مهنة ومهينة اللذين تولدا فيما بين

---

(٤٨) الجاحظ حياته وآثاره طه الحاجرى ص ٢٦٧ نقلا من كتاب الحجة .

(٤٩) كتاب الرد على النصارى هامش الكامل ج ٢ ص ١٧٤ والجاحظ حياته وآثاره طه الحاجرى ص ٢٦٤ نقلا عن ثلاث رسائل للجاحظ .

(٥٠) البخلاء تحقيق طه الحاجرى ص ١٢١ .

(٥١) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٧ ص ١٢ .

ارحام الارضين ومن نطفتين سالتا من عيني ابن هرمز حين قتله ابوه ، وكتبهم محشوة بالخرافات والاساطير ونكاح الشياطين وذكر النور والظلمة وتعظيم النار وعبادتها ، وهاهو يقول فيهم(وحماقات اهل الاثنين كثيرة في هذا الباب ولولا اني احببت ان تسمع نوعاً من الكلام ومبلغ الراى لتحدث الله شكراً على السلامة لما ذكرت لك كثيراً من هذا الكلام)(٥٢)

ويورد على لسان الشعبي قوله الساخر حين سئل عن اسم امراة ابليس (ذاك نكاح ما شهدناه)(٥٣) ثم ياتي على ذكرهم في موضع اخر من كتاب الحيوان (ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفارة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان وهو ابليس وهو اهرمن فاذا قيل له كيف تقول ذلك والفارة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة والمدن العظام والارباض الواسعة وتقرض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب وتقرض الجرب واوكية الاسقية والازقاق والقرب فتخرج ما فيها وتقع في الانية وفي البئر فتموت فيه وتحوج الناس الى مؤن عظام وربما عضت رجل النائم وربما قتلت الانسان بعضتها والفار بخراسان ربما قطعت اذن الرجل وجرذان انطاكية تعجز عنه السنانير والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار فكيف صار خلق الضار المفسد من الله وخلق النافع من خلق الشيطان ؟ والسنور يعدى به على كل شيء خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان والفارة لا نفع لها ومؤنها عظيمة فقال لان السنور لو بال في البحر لقتل عشرة الاف سمكة فهل سمعت بحجة قط او بحيلة او باضحوكة او بكلام ظهر على تلقح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال فالحمد لله الذى كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم)(٥٤) .

اما الزهاد والنساك فقد خصهم بجزء من كتاب البيان والتبيين واشار اليهم في تضاعيف كتبه ورماهم بالقول الجارح والنقد اللاذع المر فقال (ان لكل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه في الجمال فنسك المريب المرتاب من المتكلمين ان يتحلى برمي الناس بالريبة ونسك الخارجي اظهار استعظام المعاصي ثم لا يلتفت الى مجاوزة المقدار في ظلم العباد ونسك الخراساني ان يحج وينام على قفاه ونسك الرافضي ترك النبيذ ونسك اليهودى التشدد في السبت واقامته والصوفي المظهر للنسك من المسلمين اذا كان فسلا يبغض العمل تصوف واظهر تحريم المكاسب واذا كان النصراني نذلا مبغضا للعمل ترهب ولبس الصوف)(٥٥) .

وما يهمنا في حديث الجاحظ عن **الجن** وهو المسلم المعتزلي المؤول للايات التي ذكر الجن فيها تاويلا مجازيا والمتتبع للاصل اللغوى للكلمة تلك الاخبار المضحكة التي يسخر من الاعراب والشعراء وبعض العلماء الذين يجوزون وقوع مثل هذه الحوادث رغم زيفها في احاديثهم ورواياتهم عن السعالي كخبر السعلاة التي اقامت في بني تميم وولدت فيهم وكيف حنت وطارت الى بلادها حين رأت برقاً يلمع في السماء من ناحية ديار السعالي .

ملامح السخرية اللطيفة والجارحة

وهكذا لم تقتصر فكاهة الجاحظ ودعابته وسخريته على اصحاب الفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، والاساطير والخرافات ، والمعتقدات الفاسدة ، وبما انها طبع فيه خالط اللحم والدم واداة للردع والاصلاح ، واللجم الاجتماعي ، فقد شملت مجتمعه العباسي في شتى حقوله الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية وتلونت بكل هذه الاصباغ ، فجاءت كما يقول الدكتور علي بو ملحم في كتابه المناحي الفلسفية عند الجاحظ (ثمة مظهر واحد من مظاهر الذاتية او العاطفة هو روح السخرية والفكاهة اللتين نشعر بهما تريان بين حروفه فتتحرك نفوسنا وتندفع الى الضحك . لقد طبع الجاحظ على الفكاهة فلم يتكلفها تكلفاً ولم يتعمدها تعمداً ، ولذلك لم يستطع ان يمنع نفسها منها فتدفعه الى ارسال نكتة هنا ورواية هناك وتوجيه نقد هنالك كلما لقي شيئاً لا يعجبه او منظراً بشعاً او رايا موغلا في الخطأ ، وقد يسخر من نفسه . كان هذا دابه مهما كان الموضوع الذى يعالج علمياً او فكريا يحتاج الى الرصانة والجد . ان سخرية الجاحظ لطيفة خفيفة غير جارحة او ثقيلة يقبلها الانسان ولا يمجها الذوق الفني او الاجتماعي .

ان من يقرا كتاب البخلاء لا يتمالك من الضحك وهو يسمع نوادره الطريفة واخبارهم العجيبة وكذلك

---

(٥٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٠

(٥٣) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٦ ص ١٦٩ .

(٥٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٩٩ .

(٥٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٩ .

من يتصفح رسالة التربيع والتدوير يبقى في ضحك متواصل من هيئة احمد بن عبدالوهاب المربع المدور المدعي العلم والذى لا يستطيع رغم ادعائه ان يجيب على سؤال من اسئلة الجاحظ المائة التي يطرحها عليه .

يحاول الجاحظ ان يفلسف مذهبه في الدعابة والهزل فيزعم ان الضحك نافع للجسم والنفس وهو افضل من الكآبة والبكاء اللذين يوهنان العزائم ويميتان النفوس . وهناك مبرر آخر للهزل يذكره الجاحظ هو طرد السأم عن القارىء الذى يضجر بزعمه اذا طال عليه الجدد)(٥٧) .

وهذا الراى يؤكد ما فطر عليه الجاحظ من فكاهة وسخرية ودعابة ولكنه يسرف في اطلاق الاحكام العامة . فقوله ان سخرية ابي عثمان لطيفة غير جارحة او ثقيلة مسالة فيها نظر ، اذ كيف نفسر حملة الجاحظ على اهل مرو وخراسان ونقمته على الشعوبية وكتاب عصره واصحاب الملل وانتحال الدين وقفوا موقف الخصومة من المعتزلة ؟ .

من المؤكد ان الجاحظ في هزله وفكاهته لا يصدر عن نفس حاقدة وليست دعاباته من نوع الشتائم الفاحشة والسباب المقذع ، لكن هذا لا يعني غياب روح الاستعلاء والكبر والشماته والتشهير في كتابات رجل خدم السلطة العباسية بقلمه وأدبه ، وعرك السياسة بمفهومها العام وشارك في الصراع الفكرى والسياسي طيلة حياته الادبية .

ملامح السخرية اللطيفة

لقد كانت سخرية الجاحظ لطيفة فعلا حين تناول الدجالين من الاطباء الذين يهللون لانتشار الاوبئة والامراض حتى تنفتح امامهم ابواب الرزق ، والمشعوذين ، وبلاغة اصحاب الصناعات وغدر القيان ، ومفاخرة الغلمان والجوارى ، والمنجمين ، والقصاص الذين كانوا يتصدون لتفسير القرآن والحديث فيكيفون الامر حسب اهوائهم ليعظم سلطانهم عند العامة ولنستمع الى الجاحظ يقول (زعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل ، لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تاذوا من كثرة الفار وشكوا الى نوح ذلك سال ربه الفرج ، فامره ان يامر الاسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير ، ذكر وانثى ، خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفياهم مؤونة الجرذان ، ولما تاذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك الى نوح وشكا ذلك الى ربه فامره ان يامر الفيل فيسلح ، فسلح زوج خنازير فكفياهم مؤونة رائحة النجو . وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ، وقد انكرنا ان يكون الفار تخلق الا في ارحام اناثها من اصلاب ذكورها) (٥٨) .

وها هو يعبث بزيد بن اسلم وتفسيره الجغرافي لايات القرآن قال الله عزوجل (والتين والزيتون) فزعم زيد بن اسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين .

والجاحظ في هذه الملاحظات ينبه العامة والبسطاء الذين تنطلي عليهم حيل هؤلاء المشعوذين من مفسرى القرآن ويناقش ادلتهم مبيناً ضعفها وتهافتها وقال آخرون في قوله تعالى (عيناً فيها تسمى سلسبيلا) قالوا اخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض وانما هي سل سبيلا اليها يامحمد . فان كان كما قالوا فاين معنى تسمى ؟ وعلى اى شيء وقع قوله تسمى ؟ فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء) (٥٩) . وحديثه عن اهل الصناعات ووصفهم للبلاغة انموذج فريد لقدرة ابي عثمان على حوك الكلام وتقليبه على وجوه مختلفة وهو متفنن لايشق له غبار في توليد الفكاهة واشاعة الضحك والعجب في نفس القارىء وخاصة حين يرى آيات الفصاحة والبلاغة والفطنة والبراعة تعذب بها السنة الحرفيين ، من صائغ ، وحداد ، ونجار ، ونجاد ، وعطار ، وجوهرى ومائح ، وخياط ، وصباغ ، وصيرفي ، وبزاز ، وحائك ، ورائض ، وجمال ، ومخنث ، وخمار ، وفقاعي وطبيب وكحال . وسنقتطف من تلك الرسالة المشهورة بعض القطوف والشواهد لنرى بام اعيننا براعة كاتبنا في الترسل والانشاء الادبي القائم على المرونة وصحة السبك والتركيب والظرف والدعابة (اجتمع قوم من اهل الصناعات فتواصفوا البلاغة فقال الصائغ خير الكلام ما احميته بكير الفكر وسبكته بمشاعل النظر وخلصته من خبث الاطناب فبرز بروز الابريز في معنى وجيز .

وقال العطار اطيب الكلام نظاما ما عجن عنبر الفاظه بمسك معانيه ففاح نسيم نسقه وسطعت رائحة عبقه فتعطرت به الرواة وتعلقت به السراة .

---

(٥٧) المناحي الفلسفية عند الجاحظ الدكتور علي بو ملحم ص ٢٠٧ .

(٥٨) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٥ ص ١٠٦ .

(٥٩) نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٤ .

وقال الصيرفي اجود الكلام ما نقدته يد البصيرة وجلته عين الروية ووزنه معيار الفصاحة فلا نظر يزيفه ولا سماع يبهرجه .

وقال الجمال البليغ من اخذ بخطام كلامه فاناخه في منزل المعنى ثم جعل الاختصار له عقالا والايجاز له مجالا فلم ينّد عن الاذهان ولم يشذ عن الاذان .

وقال النجار الطف الكلام ما كرم نجر معناه فتحته بقدوم التقدير ونشرته بمنشار التدبير فصار بابا لبيت البيان وعارضة لسقف اللسان .

قال ثم اجمعوا ان ابلغ الكلام ما اذا اشرقت شمسه انكشف لبسه واذا صدقت انواره اخضرت احماؤه) (٦٠) والجاحظ مع تقديره للمراة وتسريه بالجواري وادراكه العميق للفساد الاجتماعي والاخلاقي في عصره ومأساة القيان ومنبت السوء الذى نشأن فيه ، وعطفه على احوالهن ، واسرافه في الحديث عن الجنس ، ووصفه لتسافد الحيوانات وما كان من شذوذ جنسي بين بعض البشر والكلاب (٦١) . سيء الظن بالقيان وبالمستوى الاخلاقي المنحط الذى انحدرن اليه . وها هو في حديثه عن ضروب خداعهن ومكرهن وسقوطهن في الكبائر والمعاصي ، يسخر ويتهكم ويدعي انه مادح لا قادح ؛ وهن في نظره شرك ابليس . (ثم اخبرته انها لا تنام شوقا اليه ولا تتهنأ بالطعام وجداً به ، ولا تمل ــ ان غاب ــ الدموع فيه ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت ، وانها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وربما قادها هذا التمويه الى التصديح : وربما شاركت صاحبها في البلوى، حتى تاتي انى بينه ، فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحل ذلك منها واكثر امرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع من مربوطيها ثلاثة او اربعة على انهم يتحامون الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للاخر باخرى ، وتغمز هذا بذاك وتعطي واحداً سرها ، والاخر علانيتها ، وتوهمه انها له دون الاخر وان الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند

(٦٠) طراز المجالس للخفاجي المطبعة الوهبية ١٢٨٤ هجري ص ٧١-٧٢-٧٣ .

(٦١) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٧ ص ٢٢٧ .

الانصراف كتباً على نسخة واحدة ولكل واحد منهم تعلن له تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم . فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ولا علم يدعو اليه ولا فتنة يستهوى بها الا القيان لكفاه . وليس هذا بذم لهن ولكنه من فرط المدح . وقد جاء في الاثر (خير نسائكم السواحر الخلابات)وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون الا دون ما تحسنه القيان) (٦٢) .

وابو عثمان على شغفه بالثقافة واجلاله للعلم والعلماء وهو الذى كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للدرس والمطالعة وينشى المربد فيشافه الاعراب ويناظر المتكلمين ويختلف الى حلقات المسجدين لم يقف مكتوف الايدى امام حماقات معلمي الصبية الذين اساءوا لمهنة التعليم وزحفوا بالظلام ونفروا النشء من تلك الينابيع الثرة وعطلوا العقول . وها هو يروى لنا كيف عادت عزيمته وقويت على كتابة دفتر في نوادى المعلمين بسبب حكاية ام عمرو بعد ان عزم على تقطيعه حين لمس بالتجربة والمعاينة مهارة معلم كتاب في النحو واللغة واشعار العرب وكيف صدم في احدى زياراته له بخفة عقله وكثر ةمناجسه في الحادثة المعروفة . وهل هناك احمق من معلم كتاب .

يقول الجاحظ (مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق فقلت ما هذه قال عندي صغار اوباش فاقول لاحدهم اقرا لوحك فيصغر لي فاضربه بالعصا القصيرة فيتاخر فاضربه بالعصا الطويلة فيفر من بين يدي فاضع الكرة في الصولجان واضربه فاضجه فيقوم الي الصغار كلهم بالالواح فاجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي واضرب الطبل وانفخ في البوق فيسمع اهل الدرب ذلك فيسارعون الي ويخلصونني منهم)(٦٣) .

ملامح السخرية الجارحة

اما ماكان للجاحظ من سخرية لاذعة وتهكم مرير فيبرز بشكل سافر حيناً ومبطن حيناً آخر في اقواله واخباره ونوادره عن الشعوبيين وبخلائهم

(٦٢) ابو عثمان البيان والتبيين وانعم الرسائل الدكتور جميل جبر ص ١٤٣ .

(٦٣) رسالة المعلمين ، نقلا عن كتاب الجاحظ ومجتمع عصره للدكتور جديل جبر ص

وكتاب الدواوين وخاصة ذوي النزعة الفارسية . ومن المعروف ان ابا عثمان هاجم الشعوبية مراراً في ادبه ، وغمز من قناتهم في اكثر من كتاب له ، وحذرهم من مغبة تحرشهم بالعرب ، وتهجين العادات العربية ومفاخرتهم بالدعوة الى البغضاء ، والتناحر بين شعوب الدولة العباسية ، ومساهمتهم في اشاعة العبث والمجون والتهتك ، كما يبدو في رسالة مفاخرة الجواري والغلمان فلم يجد النصح والموعظة الحسنة فكان لابد من السخرية الجارحة والتقريع واتباع اسلوب التهكم والهزل والاشادة بمناقب الترك واهداء الكتب الى كبرائهم كابراهيم بن العباس الصولي وقد اهداه كتاب الزرع والنخل، ووزرائهم كالفتح ابن خاقان حين استجاب لرسالته ورغبة الخليفة في الرد على النصارى(٦٤) . وقدم له كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، والاستشهاد بابيات شاعرهم الخريمي ، ورغم ان ابا عثمان قاوم التفرقة بين الامم ودعا الى الالفة ونزع الاحقاد والخصومات من القلوب والصدور فقال (وكتابنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ولنريد الالفة ان كانت مؤتلفة)(٦٥) . وظمان الفرس الى ان كتابه في فضائل الترك ليس في مديح قوم وهجاء آخرين فقد اراده (ان يكون قصداً ومذهباً عدلا ولا يكون كتاب اسراف في مديح قوم وهجاء آخرين) (٦٦) فان الفرس اعتبروا الكتاب طعناً فيهم وتاييداً لفريق بدا ينافسهم في اجتلاب الخيرات والمصالح وينازعهم نفوذهم .

وهو في دفاعه عن العرب وسخريته بالشعوبيين ينطلق من امرين **الاول منهما** ادراكه العميق لدور العرب في خدمة الثقافة الانسانية فقد احاطوا بها ، ومكنوا لها في الارض ، وسارعوا الى رعايتها والعناية بالمشتغلين على نقلها الى العربية ، وليس ما عربوه من آثار الشعوب المختلفة سوى شاهد بسيط على عظمة هذه الامة .

والثاني تعصب الشعوبية للنزعة الكسروية وادلالهم على الدولة العباسية بالتاييد والنصر وطمسهم لاثر القبائل العربية التي نزلت في بلاد ما وراء النهر في تقويض الدولة الاموية وما هم عليه من تشيع وبخل وتقتير . يقول الخراساني (نحن النقباء ، ونحن النجباء ، ومنا الدعاة وبنا زال ملك اعدائنا عن مستقره ، ولبث ملك اوليائنا في نصابه ، ونحن فتحنا البلاد ، وقتلنا العباد ، وابدنا العدو بكل واد ، ونحن اهل هذه الدولة ، واصحاب هذه الدعوة ، ومنبت هذه الشجرة ، والانصار انصاران الاوس والخزرج نصروا النبي في اول الزمان واهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان ، ثم نحن على وتيرة واحدة وندين بانطاعة ، ونحن اصحاب الرايات السود والروايات الصحيحة)(٦٧) . فيجيب العربي بكلام مفحم (وهل اكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صليبة هذا النسب)(٦٨) .

وكلام الجاحظ الذى اورده على لسان الخراساني ورد العربي عليه مليء بالتهكم والسخرية المبطنة من اهل هذه النحلة ، اذ لو صح ادعاؤهم فما قيمة دهاء السفاح وابي جعفر المنصور والعناصر العربية في تاسيس الدولة العباسية .

وهكذا لا يستطيع كاتبنا وهو يسعى لراب الصدع وتاليف القلوب ان يمنع قلمه من التهكم فظاهر الفاظه مديح والمعنى هزل وتجريح؛ فقد عانى ابو عثمان الامرين من صراعه مع الشعوبية . وكيف ينسى ما كتبه في مناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب وكتاب البخلاء وكتاب الزرع والنخل والبيان والتبيين وغيرها من الكتب والرسائل او يتناسى شكه في التراث المنسوب الى الفرس ؟ وهو القائل (ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بايدى الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبيدالله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السيرة)(٦٩) .

وهذا التعليق ذو دلالة خطيرة وذروة في السخرية من الشعوبيين الذين كانوا يتباهون بما للفرس من تراث عريق في الآداب والعلوم والفنون والحضارة .

ووصف الجاحظ للكتاب ذو نكهة خاصة لايقدر معها القارىء امساك نفسه من الضحك والشفقة على هؤلاء فهو حين جلس يوماً في بعض الدواوين فتامل الكتاب فادرك بثاقب نظره ما وراء جمال

---

(٦٤) معجم الادباء ج ١٦ ص ٩٩ .
(٦٥) رسائل الجاحظ (فضائل الاتراك) ج ١ ص ٢٩ .
(٦٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦ .
(٦٧) نفس المصدر ج ١ ص ١٤-٢١ .
(٦٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢-٢٥ .
(٦٩) البيان والتبيين ج ٣ ص ٩ .

المظهر من قبح المخبر فعراهم وكشف عيوبهم وهشاشة تصنعهم للفهم والظرف ولم يترك لهم سوى صفة حميدة واحدة هي الخلقة الحلوة ؛ وتلك الصفة تحسن بالنساء لا الرجال (خلق حلوة وشمائل معشوقة وتظرف اهل الفهم ووقار اهل العلم فان القيت عليهم الاخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء وكنبتة يحرقها الهيف من الرياح لا يستندون من العلم الى وثيقة ولا يدينون بحقيقة ، اخفر الخلق لامانانهم واشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ، الويل لهم مما كتبت ايديهم ، وويل لهم مما يكسبون)(٧١) .

وهو حين يتصدى لوصف زيهم وحركاتهم في المجالس وغطرستهم الجوفاء وميلهم لكتب بزر جمهر واردشير وابن المقفع ومزدك واستجهالهم للصحابة والتابعين وتابعي التابعين واستثقالهم للذى يميل منهم الى التفسير والفقه والسنة والاثر متهكم لا يقتصر على السخرية ونقد العيوب فحسب بل يشفعها بضروب من الازدواج والتلوين الصوتي والتكرار والجمل المتلاحقة كالسيل المتدافع فيوفر لكتابته منزلة الادب الرفيع والرواج والذيوع بين الناس واعجاب العامة قبل الخاصة بهذا الترسل الجاحظي الفريد ذى الماء والرونق (يتوهم الواحد منهم اذا عرض جبته وطول ذيله وعقص على خده صدغه وتحدف الشابورتين على وجهه انه المتبوع ليس التابع والمليك فرق المالك ثم التاشي فيهم اذا وطيء مقعد الرئاسة وتورك مشورة الخلافة وصارت الدواة امامه وحفظ من الكلام فتيقه وروى لبزر جمهر امثاله ولاردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع ادبه وصير كتاب مزدك معدن علم ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته انه الفاروق الاكبر في التدبير وابن عباس في انعلم والتاويل فان استرجح احد اصحاب الرسول (صلعم) قتل عند ذكرهم شدقه ولو عن محاسنهم كشحه وان ذكر شريح جرحه وان نعت له الحسن استثقله وان وصف له الشعبي استحمقه . ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان وتدبير انوشروان واستقامة البلاد لال ساسان . ومن الدليل على ذلك انه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا علمه تفسيره ولا الفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسن والاثار عماده . وان آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث والتشاغل بذكر كتب المتفقهين استثقله اقرانه واستوخمه الافه وقضوا عليه بالادبار في معيشته والحرفة في صناعته حين حاول ماليس من طبعه ورام ماليس من شكله)(٧٢) .

تلك هي العقوبة التي فرضها الجاحظ على الكتاب تشهير وسخرية وهزء وتهكم نقط آلمته شعوبيتهم واساليبهم السقيمة في الكتابة وما حاكوا له من دسائس ومؤامرات واشاعوا عنه من مثالب واكاذيب ، وضاق بذلك الجو الموبؤ بالحسد والتنافس واختلاق الفرية والاكذوبة يوم ولاه المامون ديوان الرسائل فاستعفى من هذا المنصب الخطير بعد ثلاثة ايام وآثر حياة الحرية والانطلاق على جو الدواوين الرهيب الملىء بالمخازى وانصاف المثقفين والجهلة . ولم يغفر لسهل بن هارون تاليبه للديوانيين عليه وهو من طينتهم وجبلتهم وابن نزعتهم الفارسية المقيتة حين قال (ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان افل نجم الكتاب) فعاقبه في كتاب البخلاء وصب عليه جام غضبه في نشره للرسالة المعروفة التي ارسلها سهل الى بعض اقاربه وبني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب .

ولعل مخاشنة احمد بن عبدالوهاب لابي عثمان وتطاوله عليه (واشهد بعد ، انك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله)(٧٣) وتقربه من ابن الزيات اثناء الجفوة التي وقعت بينه وبين مترجمنا(٧٤) وكونه من طائفة الكتاب ومنتحلي العلم ومدعي الجمال والحسن هو الذى دفع الجاحظ الى ذلك الهجاء التهكمي الغريب في رسالة التربيع والتدوير بنثر ادبي يحتكم فيه الى عقله فيورد الحجة تلو الحجة ويسوق الادلة والبراهين الجدلية والمغالطات المنطقية ويبحث ويتقصى مسالة الطول والعرض والتربيع والتدوير وكانه امام مشكلة من مشاكل الاعتزال او الفلسفة اذ تراه يفتش في مهجوه عن مسالة التوسط بين المتطرفين فيمده تارة ويدوره مع تربيعه تارة اخرى ويشير الى سعة جفرته واستفاضة خاصرته مع الرشاقة والنحول. والجاحظ في تصويره الهادىء لصاحبه بذلك التشويه المقصود وتلك المناظر

(٧١) نفس المصدر ص ١٢١ .

(٧٢) الجاحظ والبيان والتبيين واهم الرسائل الدكتور جميل جبر ص ١٢٩-١٣٠ ، ثلاث رسائل للجاحظ نشرها المستشرق يوشع فنكل (ذم اخلاق الكتاب ص ٤٢) .

(٧٣) رسالة التربيع والتدوير للجاحظ تحقيق فوزى عطوى ص ٢٨ .

(٧٤) الجاحظ حياته وآثاره للدكتور طه الحاجري ص ٢٨٠ .

المضحكة حريص على استنفاد كل براعته في الهجاء التهكمي واضحاك القراء بالكلمة السهلة والجرس الموسيقي والنعوة العجيبة ، والدليل المنطقي والجدلي ، والمفارقات ، والتحليل النفسي العميق، والقصة المحبوكة الاطراف (وقد علموا ابقاك الله ان لك مع طول البلد راكباً طول الظهر جالساً ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ومن غريب ماعطيت وبديع ما اوتيت انا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فانت المديد وانت البسيط وانت الطويل وانت المتقارب ، فيا شعراً جمع الاعاريض ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول) (٧٥) وينتقل كاتبنا في وصف بطل الرسالة من وصف جسدي الى وصف نفسي ومن ظاهرة الى اخرى فيقرر ان كل مربع هو مدور في جوفه وناهيك عما في هذا الاستنتاج من سفسطة ظاهرة ظاهرة ومفارقة عجيبة ، ثم يتغزل بحسن صاحبه وجماله وعشق النساء له وتغني الحرائر والقيان بذلك الوجه الصبوح والقد الفارع وينتهي بعد ذلك الى طرح اسئلته المائة التي يتركها دون اجوبة ليدل على جهل المهجو الذي يعد اسماء الكتب ولا يعرف معانيها . كل ذلك ببيان مشرق ساحر صقلته الثقافة وعمقته الفلسفة وشحذه الاطلاع الواسع وقام به تلوين صوتي بديع تتعادل فيه الجمل وزناً وايقاعاً دون ان تنتهي بالسجع وتلوين عقلي طريف ينهض بحصيلة ثقافية باهرة قلما تتوافر لاديب (وعلى ان كل مربع ففي جوفه مدور فقد بان المدور بفضله وشارك المطول في حصته ومن العجب انك تزعم انك طويل في الحقيقة ثم تحتج بالاستدارة والعرض فقد اضربت عما عند الله صفحاً ولهجت بما عند الناس)(٧٦) ثم يقول في وصف جماله (كان عنقه ابريق فضة وكان قدمه لسان حية وكأن عينه ماوية وكان بطنه قبطية وكان لسانه ورقة وكان انفه حد سيف وكان حاجبه خط بقلم وكأن لونه الذهب وكأن عوارضه البرد وكأن فاه خاتم وكان جبينه هلال) (٧٧) .

ويروى عن عشق النساء له (وكيف وقد اصبحت وما على ظهرها خود الا وهي تتعثر باسمك ولا قينة الا وهي تغني بمدحك ولا فتاة الا وهي تشكو تباريح حبك ولا محجوبة الا وهي تثقب الخروق لمرك ولا عجوز الا وهي تدعو لك ولا غيور الا وقد تشفي بك وكم من عين ساهرة واخرى جاهدة واخرى باكية وكم من عبرى مولهة وفتاة معذبة قد اقرح قلبها الحزن واجهد عينها الكمد)(٧٨) ويخزيه بطرح اسئلة تظل دون اجوبة (يا قميد الفلك كيف امسيت ؟ ويا قوة الهيولى كيف اصبحت ؟ حدثني كيف رايت الطوفان ومتى كان سيل العرم ومذكم مات عوج ، ومتى تبلبلت الالسن وما حبس غراب نوح ؟ ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف، واى هذه الاودية اقدم انهر بلخ ام النيل ام الفرات ام دجلة ام جيحان ام سيحان ؟ وخبرني عن هرمس اهو ادريس وعن ارميا اهو الخضر وعن ذى القرنين اهو الاسكندر)(٧٩) .

والحق ان ابا عثمان بلغ من سخريته بالرجل مبلغاً لم يصل اليه كاتب او شاعر في لغة الضاد . وهو لم ينحدر الى الشتم والقذف والالفاظ المكشوفة والبذيئة بل ظل مترفعاً عن هذه المستويات . يهزه التهكم والسخرية فيسوق المفارقات ، ويقابل بين الاشياء . وعبثه هذا مرده الى التناقض الظاهر بين الشيء ونقيضه لابن عبدالوهاب . وما يخلعه عليه قلمه الساخر الثائر من صفات الحسن والجمال .

ومما لاشك فيه ان ابا عثمان في قصه لنوادر البخلاء والسخرية من حيلهم في جمع المال ومنع انفاقه قد استفاد ممن سبقوه في هذا المضمار ؛ وكتبوا فيه ، فاحاديث البخل وقصص اصحابه كانت منتشرة وشائعة في المجتمع العباسي قبل الجاحظ بزمن طويل ، يرددها الناس في مجالسهم كموقف قومي للعرب يزرون فيه شح الشعوبيين والاعاجم تارة ، ونوع من العداوة السياسية للعباسيين بعد انتصارهم على بني امية تارة اخرى .

على هذا الاساس يمكن اعتبار كتاب المحاسن والاضداد المنسوب الى الجاحظ فصلا رائعا من كتاب البخلاء ، ومقدمة خاصة تؤرخ للكرم والبخل عند العرب والامم الشرقية ـ . يقول الدكتور طه الحاجري في مقدمة الطبعة التي حققها لكتاب البخلاء (نقد اخذ هذا الموضوع الذى كان اكبر مثارة للشهوات السياسية والعنصرية والذى كان جديرا ان يثير عوامل المشاقة والمخاصمة فجعله موضوعا ادبيا خالصا ، ومتعة فنية رائعة ؛ وكان رهينا بالاغراض الموقوته التي اثير من اجلها فصار خالدا

(٧٥) رسالة التربيع والتدوير تحقيق فوزى عطوى ص ١٨ .
(٧٦) نفس المصدر ص ١٦
(٧٧) نفس المصدر ص ٥٩ .
(٧٨) نفس المصدر ص ٦١ .
(٧٩) نفس المصدر ص ٢٠ ـ ٢١ .

خلود النفس الانسانية) (٨٠) . وهنا تكمن عبقرية ابي عثمان وفعالية سخريته في ادبه وائر ذلك الطبع المرح على مجمل ما كتب وصنف من احاديث تعرض لطبيعة البخل فتصبغ النادرة والحكاية والطرفة بصبغة فنية خالصة ، وتصور حياة البخلاء ، وما يختلج في اعماق نفوسهم من قلق وخوف من الفقر او الموت جوعا نتيجة لظروف اقتصادية صعبة مرت بهم او ترامت الى اسماعهم بطريقة المثل (عن قرش ابيض في يوم اسود) .

والخوف من الموت جوعا على حد تعبير **برادين** سبب اساسي من اسباب شيوع البخل بين الناس .

وقد ابرز الجاحظ ذلك القلق النفسي الذى انتاب ابطاله الاشحاء على الصعيدين الفردى والجماعي وها هو علي الاسوارى يبتلع ضرسه وهو لا يعلم حين تهش بضعة لحم (وكان اذا اكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر ، وسدر ، وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ولم يبصر ، فلما رايت ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له الا ونحن ناكل التمر ، والجوز ، والباقلي ، ولم يفاجاني قط وانا آكل تمراً الا استفه سفا ، وحساه حسواً ، ولا وجد كثيزاً الا تناول القصعة كجمجمة الثور ، ثم ياخذ بحضنيها ويقلها من الارض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ، ورفعا وخفضا ، حتى ياتي عليها جميعها ، ثم لايقع غضبه الا على الانصاف والاثلاث ، ولم يفصل تمرة قط من تمرة ، وكان صاحب جمل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ولا نفى عنه قشراً ولا فتشه مخافة السوس والدود ، ثم ما رايته قط ، الا وكانه طالب ثار ، وكانه عاشق مغتلم او جائع مقرور)(٨١) .

ونرى هذا الحرص على الحياة والاستمتاع باحاديث البخل في حلقات المسجدين التي كانوا يعقدونها في المساجد للتدارس والتذاكر بما يحفظ النفس والمال والافادة من تجارب الاخرين في الادخار والاقتصاد في النفقة (وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب ، الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر وكانوا اذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستمتاعا بذكره) (٨٢) .

وليست هذه المؤتمرات سوى انعكاس لشعور بالنقص انطوت عليه النفوس وخوفا من الفاقة ودفعا لخطرها . والشعور بالنقص كما تقول نظريات علم النفس دافع رئيسي للامراض العصبية .

والبخل في نظر الجاحظ طبع في الانسان ينمو ويتطور بتاثير المحيط والبيئة ، وهو لم يؤلف كتابه هذا لتفكهه والتندر فحسب ، وانما كتب تلك الفصول الضافية ، واوقعها في سياق قصصي واقعي يزخر بالحياة ، وتحليل رائع لابعاد النفس البشرية والسلوك الانساني لدراسة اصل الاخلاق فالبخلاء ليسوا اصحاب شح وتقتير بسبب قناعة عقلية كما هو ظاهر على لسان سهل بن هارون في رسالته الشهيرة وكذلك المفاخرون بصفة الكرم في رسالة ابي العاص الثقفي . انما القضية في النهاية طبع غالب فطر عليه هؤلاء واولئك . وما حادثة الصبي الذى وجد عند ابيه صيوفاً ياكلون ولا ينقطعون عن الطعام ، فصاح بهم : كم تاكلون لا اطعم الله بطونكم ، وهناف جده ابني ورب الكعبة الا دليل قاقع على صحة هذه النظرية . وكذلك قصة ديكة مرو التي تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب هي ايضاً شاهد آخر . فالبخل شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء فمن ثم عم جميع حيوانهم(٨٣) . انه وباء سريع الانتشار اصاب الماء والطير والحيوان واستوطن في تلك المنطقة . وبما ان الجاحظ كما يقول الدكتور علي بو ملحم (ياخذ بالمذهب الطبيعي في جميع مناحيه الفلسفية ويؤكد بصدد الاخلاق على تاثير البيئة الطبيعية في اخلاق الناس والحيوان كما تاثيرها من قبل في اجسامهم وعاداتهم)(٨٤) . فليس غريباً بعد هذا ان يكون الولد سر ابيه في اقليم مرو يمنع الزائر من الماء لاتريده فهو مالح ومن الخبز لا تريده فهو مر فيضحك ابوه ولا يتردد في القول مفاخراً (ما ذنبنا هذا من علمه ما تسمع يعني ان البخل طبع فيهم وفي اعراقهم وطينتهم)(٨٥) .

الجانب التعبيرى في سخرية الجاحظ

يقوم الجانب التعبيرى لسخرية ابي عثمان على التورية اللفظية كدلالة على الشيء بكلمة واحدة والحوار والمناظرة ووصف الحركات والاشكال والطباع سواء ابخيلا كان الموصوف ام طفيليا . ومن

(٨٠) البخلاء تحقيق الدكتور طه الحاجرى (المقدمة) .
(٨١) البخلاء دار الكتب الشعبية بيروت ص ٥٧ .
(٨٢) البخلاء دار الكتب الشعبية ص ٥٧ .
(٨٣) نفس المصدر ص ١٦ .
(٨٤) المناحي الفلسفية عند الجاحظ الدكتور علي بو ملحم ص ٢٥٢ .
(٨٥) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ١٦ .

شواهد دلالته على الاشياء بلفظة واحدة في كتاب البخلاء وشرحها وتفصيلها والوقوف على معناها بعد ذلك ما يرويه الحارثي عن ابي فاتك ونفسه (الفتى لا يكون نشالا ولا نشافا ولا مرسالا ولا لكاما ولا مصاصا ولا نفاضا ولا دلاكا ولا مقورا ولا مغربلا ولا محلقما ولا مسوغا ولا ملفما ولا مخضرا فكيف لو راى ابو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول واناراته احتمل الضيف والضيفين ولا احتمل اللعموظ ولا الجردبيل ؛ والواغل اهون علي من الراشن)(٨٦) .

والجاحظ في رصده الحركات والسكنات التي يقوم بها البخلاء والطفيليون وذكره لالقابهم وحيلهم وتصرفاتهم التي تتنافى وآداب الطعام عند العرب والعجم ، وايقافنا على اكلهم ومؤاكلتهم وجلوسهم الى المآدب العامرة وطريقة تناولهم للقم وتفسيره لكلام قاضي الفتيان ابي فاتك كاتب بارع تلتقط ريشته الاشياء من الزاوية المطلوبة بدقة وبراعة . (اما قوله لا يكون نشالا فالنشال عنده الذى يتناول من القدر ويأكل قبل النضج وقبل ان تنزل ويتتام القوم . والنشاف الذى ياخذ حرف الجرذقة (الرغيف) فيفتحه ثم يغمسه في راس القدر ويشربه الدسم يستأثر بذلك دون اصحابه)(٨٧) .

وقد شرح ابو عثمان كل ماورد ذكره من القاب للبخلاء والطفيليين في كتابه هذا شرحا مفصلا اما تفسير ابي عثمان لما ذكره الحارثي فلا يخرج ايضا عن هذا الاطار الرائع فهو يصف خوف البخيل وصبره وهو ياكل ويؤاكل الطفيليين ليتدارك مقالة السوء ويدفع البخل عنه فيصاب بهزائم منكرة في ماله ونفسه ، ولا ريب ان تلك المفارقات الحسية الظاهرة بين هذه الحركات الصبيانية واشكال اصحابها وطريقتهم في الاكل والمضغ هي الصفة المميزة للشيء المضحك والايهام الفكاهي .

ولا ندرى على وجه التحديد ما اذا كان هؤلاء الطفيليون من البخلاء وذوى الاقتصاد ، والا فما معنى هذه الشراهة على موائد الاخرين اواما اللطاع فهو الذى يلطع اصبعه ثم يعيدها في مرق القوم او لبنهم او سويقهم وما اشبه ذلك ، والنهاش هو الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع ، واما قول الحارثي الواغل اهون علي من الراشن فانه يزعم ان طفيلي الشراب اهون عليه من طفيلي الطعام)(٨٨) .

(٨٦) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ١٦ .
(٨٧) نفس المصدر ص ٥٥ – ٥٦ .
(٨٨) نفس المصدر ص ٥٦ .

ودلالات كلمات الحارثي مشروحة بالتفصيل في كتاب البخلاء ونوادر الاذكياء . ويبرز مضحك الكلمات والحركات في قصة الاسوارى وهو ينقض على عيسى ابن سليمان يستلب اللقمة من يده ، والشيخ الخراساني الذى صاح بمن دعاه لمشاركته الطعام مكانك فان العجلة من الشيطان حين لبى الرجل الدعوة وهناك معاذة العنبرية التي كاد عدم معرفتها بالانتفاع بالدم يصير كية في قلبها وقذى في عينها وصاحب الحمار والماء العذب وهو يقبض قبضة من حصى ثم يضرب بها الارض قائلا لا تعلم انك من المسرفين حتى تسمع باخبار الصالحين . ولا يفوت الجاحظ في كتابه هذا ذكر اهل الكدية والمتسولين الذين اقبلوا من الكور والجهات وشرح حيلهم وما فيها من مكر وخداع ولطف وبراءة وتدوين وصاياهم الى ابنائهم . وقد كان التسول في ذلك العصر وسيلة من وسائل الارتزاق بفعل الظروف الاقتصادية التي غيرت المفاهيم الحياتية والاجتماعية والفقر المدقع الشائع في الاوساط الشعبية فيورد لنا كلام خالد بن يزيد مولى المهالبة وهو خالويه المكدى (لم يبق في الارض مخطراني ولا مستعرض الا فقته ولا شحاذ ولا كاغاني ولا بانوان ولا قرسي ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدى ولا اسطيل الا كان تحت يدى ولقد اكلت الزكورى ثلاثين سنة ولم يبق في الارض كعبي ولا مكد الا وقد اخذت العرافه عليه)(٨٩) . ثم ياخذ بالتفسير والشرح لتبيه الناس وتحذيرهم من الوقوع في احابيل هؤلاء المحتالين فالمخطراني الذى ياتيك في زى ناسك ويريك ان بابك قد قور لسانه من اصله لانه كان مؤذنا هناك ثم يفتح فاه كما يصنع من يتساءل فلا ترى له لسانا البتة ولسانه في الحقيقة كلسان الثور وانا احد من خدع بذلك ولا بد للمخطراني ان يكون معه واحد يعبر عنه او لوح او قرطاس قد كتب فيه شانه وقصته . والكاغاني الذى يتجنن ويتصارع ويزبد حتى لايشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته . اما افتخار خالويه باكله للزكورى وهو خبز الصدقة الموقوف على سجين او سائل فيشير الى جمعه بين البخل والكدية .

وابو عثمان في اقاصيصه ونوادره وتتبعه لالقاب الطفيليين والمكديين وتفسيره لها وابرازه لظرف البخلاء وطرافة حيلهم في جلب المال ساخر بين الغرض ينزل الكلام منازله فيجرى على لسان

(٨٩) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ٣٥ .

كل من ابطاله ما يناسبه من حوار ومفردات فكلام القضاة مفردات حقوقية وتعابير فقهية وكلام رجال الدين وعلماء الكلام شرعي وجدلي ما ورائي ، اما كلمات التجار فالفاظ متداولة في السوق وتعابير السوقة والعامة قريبة الى الابتذال يشيع فيها اللحن واللفظ الفارسي كقوله مثلا قور الرغيف شرب على الريق ؛ ان في زيق سراويله نورة وتبنكت خاتون وتقلعت الرزات وروج بمعنى عجل ومن شواهد المفردات الشرعية القضائية ماجاء في حديث خالد بن يزيد (احتال الاباء في حبس الاموال على اولادهم بالوقف فاحتالت القضاة على اولادهم بالاستحجار . ما اسرعهم الى اطلاق الحجر)(٩٠) .

وهذه الظاهرة شديدة الدلالة على خبرةالكاتب بنفوس الناس من مختلف الطبقات ومعرفته الدقيقة للمواطن التي تفجر الضحك لدى كل طبقة وهي في الوقت نفسه اشارة لواقعية ابي عثمان وبراعته الفنية في التعبير . وها هو في نظرية الجزء الذى لا يتجزأ التي اخذ بها بعض الفلاسفة وعلماء الكلام يقول على لسان احد المتندرين (واانا موسى بن جناس بارزة ولو شاء انسان ان يعد حبها لعدّه لتفرقه وقلته قال فنثروا عليها لبكة من دبس مقدار نصف اسيكرة فوقعت ليلتئذ في فمي قطعة وكنت الى جنبه فسمع صوتها حين مضغها فضرب يده على جبتي ثم قال اجرش يا ابا كعب قلت ويلك اما تتقي الله كيف اجرش جزءاً لا يتجزأ)(٩١) .

وكاني بالجاحظ لم يغفر للكندى ما ذهب اليه في كتبه الفلسفية من قول ان للكواكب والافلاك نفوساً وعقولا تتمتع من خلالها بالحياة وتؤثر في شؤون الكائنات على سطح الارض فعبث به وشهر ببخله وحكى عن مستاجر عنده اسمه معبد القصة التالية (نزلنا دار الكندى اكثر من سنة نروج له الكراء وتقضي الحوائج ونفي له بالشرط قلت قد فهمت اخذ الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط . قال في شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة والا يلقوا عظماً ولا يخرجوا كساحة وان تكون له نوى التمر وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته . وكان في ذلك يتنزل عليهم فكانوا لطيبه وافراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك . قال معبد فبينا انا كذلك اذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له اذا رقعة منه قد جاءتني (ان كان مقام هذين القادمين ليلة او ليلتين احتملنا ذلك وان كان اطماع السكان في الليلة الواحدة يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة) فكتبت اليه (ليس مقامهما عندنا الا شهراً او نحوه) فكتب الي (ان دارك بثلاثين درهماً وانتم ستة لكل راس خمسة فاذا قد زدت رجلين فلا بد من زيادة خمستين فالدار عليك من يومك هذا باربعين) فكتبت اليه (وما يضرك من مقامهما وثقل ابدانهما على الارض التي تحمل الجبال وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكتب الي بعذرك لاعرفه) ولم ادر اني اهجم على ما هجمت واني اقع منه فيما وقعت فكتب لي (الخصال التي تدعو الى ذلك كثيرة وهي قائمة معروفة من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة المؤنة ومن ذلك ان الاقدام اذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطينة وعلى ارض البيوت المجصصة والصعود على الدرج الكثيرة فيتقشر لذلك الطين وينقلع الجص وينكسر العتب واذا كثر الدخول والخروج والفتح والاغلاق والاقفال وجذب الاقفال تهشمت الابواب وتقلعت الرزات) (٩٢) .

والكندى في هذه النادرة بخيل من طراز فريد ومؤجر يضع الشروط التي تبدو تعجيزية في نظره وتافهة بالنسبة للمستاجر فما قيمة غرقة طبيخ لحامل وروث دابة وبعر شاة وقشر رمان ونوى تمر وزيارة مؤجر وجار ؟ . وابو عثمان في تصويره لقبول معبد بهذه الشروط يشير الى امرين **اولهما** ممدن الرجل العربي الذى يحب سماع النطق الجيد والحديث اللبق **وثانيهما** ازمة السكن في المدن الكبرى وما يتكلفه الناس من اجور باهظة .

وهو في هذه الاخبار مصور بارع للعلاقات العامة التي تتناول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العباسي بما فيها من ظلم واجحاف ومشاهد مضحكة مبكية يدفعه حرصه على الواقعية الى نقل الرسائل المتبادلة بين معبد والكندى بالفاظ نابضة بالحياة لا نتمالك انفسنا معها من الضحك والبكاء وخاصة حين يفرق المؤجر بين الايجارة الثانوية والضيافة ، فيطالب بزيادة بدل الايجار مقدار خمستين من الدراهم ؛ فقد زاد عدد الرؤوس اى شاغلي الماجور . اضف الى ذلك تلك الحجج

(٩٠) نفس المصدر ص ٢٧ .
(٩١) البخلاء تحقيق طه الحاجرى ص ١٢٨ .
(٩٢) مع بخلاء الجاحظ فاروق سعد باب النصوص ص ١٩٢ . والبخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ٥٨ ـ ٥٩ .

التي يتذرع بها الكندي بطل الحادثة من نفقة البائوعة وكثرة المشي على السطوح وصعود السلالم وتقشر الطين وتهشم الابواب بكثرة الدخول والخروج ،ولولا هذه التفاصيل لما كان في ايراد هذه القصة كبير غناء في اضحاك القراء واشفاقهم على المؤجر والمستاجر . وهذا هو روح السخرية واداتها الفاعلة في النقد والتجريح والتنبيه الى العيوب .

اما المناظرات المضحكة التي ترينا مقدرة المتناظرين الكلامية ودقة كل منهما في سوق الادلة والبراهين وتدعيم رايه ومذهبه بالاجوبة المفحمة المسكتة المستقاة من واقع الحياة وما آلت اليه ظروف العصر او من القيم الاخلاقية المعروفة من كرم ونجدة وشجاعة ، فاذا نحن امام بخيل ظريف عركته الايام يتنازل عن اسمه في سبيل جمع المال وادخاره فهو القطب الذى تدور عليه رحى الدنيا ويسخر من السخي الذي يتلف ثروته لقاء حمد لا يغني ولا يسمن من جوع .

والبخيل المتكلم كما لا يخفى رمز للشعوبي والكتّاب اما السخي فرمز للعربي يسارع في الخيرات ويتصباه الصيت الحسن يشيع بين الناس والذكر المحمود يتناقله الخلق عن السلف . (قلت مرة لابي محمد الحزامي عبد الله بن كاسب كاتب مويس وداود بن ابي داود : قد رضيت بان يقال عبدالله بخيل ، قال : لا اعدمني الله هذا الاسم . قلت : وكيف ؟ قال : لايقال فلان بخيل ، الا وهو ذو مال ، فسلم لي المال ، وادعني باى اسم شئت . قلت : ولا يقال فلان سخي الا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال واسم البخل يجمع المال والذم ، فقد اخترت اخسهما واوضعهما .

قال : وبينهما فرق . قلت : فهاته . قال : في قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال في ملكه وفي قولهم سخي اخبار عن خروج المال من ملكه . واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم . واسم السخي اسم فيه تضييع وحمد . والمال ناضر نافع مكرم لاهله ، معز ؛ والحمد ربح وسخرية واستماعك له ضعف وفسولة . وما اقل غناء الحمد والله عنه اذا جاع بطنه وعرى جلده وضاع عياله وشمت به من كان يحسده !)(٩٣) . وهكذا كان الجاحظ في فكاهاته ودعاباته ونوادره العملية التي تتوسل بسيطرة اللغة على الفكر سابقا لكثير من الفلاسفة والادباء الذين فننوا ظاهرة الضحك بملاحظات نظرية وابحاث وتحليلات نفسية ودراسات اجتماعية كمارسيل بانيول وشكسبير الذى اعتبر الايجاز روحا للدعابة والنكتة وما اكثر اللقطات الفكاهية الموجزة في ادب ابي عثمان وهربرت سبنسر ومكدوجال في ابحاثه وتحليلاته التي انتهت الى ان الضحك غريزة وطبع وان له مفعولا عظيما في الجسم والنفس (٩٤) . وقد قال الجاحظ (وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا **وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب** . لان الضحك اول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته) (٩٥) . وهنرى برغسون في دراسته الاجتماعية والاخلاقية للضحك وخاصة حيث يقول (ان المضحك دائما هو الانسان سواء في ذلك اشكاله ، او حركاته ، او كلماته وان مثار الضحك في هذه الاشياء هو مخالفتها على نحو ما للاوضاع الطبيعية والاجتماعية)(٩٦) .

وها هو ابو عثمان يجمع لنا في نادرة واحدة وبشكل عملي لا نظرى مضحك الاشكال والحركات والكلمات والطباع ، فالشعوبيون عنده مفطورون على البخل وطباعهم مضحكة للغاية (ومن اعاجيب اهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الهزل وذلك ان رجلا من اهل مرو كان لايزال يحج ويتجر وينزل على رجل من اهل العراق فيكرمه ويكفيه مؤنته ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي ليت اني قد اراك بمرو حتى اكافئك لقديم احسانك وما تجدد لي من البر في كل مرة . فاما هنا فقد اغناك الله عني . قال فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هون عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب مكان المروزى هنالك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ليحط رحله عنده كما يصنع الرجل بثقته وموضع انسه فلما وجده قاعدا في اصحابه اكب عليه وعانقه فلم يره اثبته ؛ ولا سال عنه سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه لعل انكاره اياى لكان القناع فرمى بقناعه وابتدا مسالته فكان له انكر ، فقال لعله ان يكون انما اتي من قبل العمامة فنزعها ، ثم

(٩٢) مع بخلاء الجاحظ فاروق سعد ، باب النصوص ص ١٧٥ ـ ٦٧٦ .

(٩٤) مع بخلاء الجاحظ فاروق سعد بتصرف .
(٩٥) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ٩ .
(٩٦) الضحك هنرى برغسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم ص ١٥ النشر الفني واثر الجاحظ فيه عبد الحكيم بلبع ص ٢٦٥ .

انتسب ، وجدد مسالته فوجده اشد ماكان لـــه انكارا ؛ قال فلعله انما اتي من قبل القلنسوة . وعلم المرزي انه لم يبق شيء يتعلق فينبه المتغافل او المتجاهل فقال : اكراز بوست بارون بيائي نشناستم، لو خرجت من جلدك لم اعرفك . ترجمة هذا الكلام بالفارسية)(٩٧) .

وما اكثر النصوص والنوادر التي تصلـــح كشواهد لكل انواع المضحك في كتاب البخلاء . من ذلك قصة جبل وابي مازن ، ونوادر ابي القماقـم وزوجته ؛ وقصة الابن وابيه ومناجاة الاب للدرهم وتادمه بجبنة عنده وصنيع ولده بعد موته في الاشارة لقطعة الجبن باللقمة وغيرها من عشرات القصص المتناثرة في كتب الجاحظ المختلفة ورسائله المطردة .

الحق ان الامر لا يقتصر عند هذا الحد فبين الجاحظ والفيلسوف الفرنسي تقارب وتشابه في موقفهما من سيكولوجية الضحك وقد سبق ابو عثمان هنري برغسون حين قرر ان الضحك مع الجماعة اجدى وانفع من ضحك الانسان وحده مع صاحب لا غير . يقول برغسون (لكي يحدث المضحك ما يحدثه من تاثير للابدان يتوقف القلب برهة عن الشعور لانه يتوجه الى العقل المحض وينبغي لهذا العقل ان يكون على صلة بعقول اخرى وهذه هي النقطة الثالثة التي اردنا ان نلفت اليها النظر فنحن لا نتذوق المضحك في حالة شعورنا بالعزلة والضحك في حاجة الى صدى) (٩٨) ويعلق ابو عثمان على قصته مع محفوظ النقاش حين اغراه بجام لبأ وطبق تمر فاتي عليهما في ليلة ماطرة وهو العليل الذى يشكو من الفالج طرفاً فيقول (فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولقد اكلته جميعاً فما هضمه الا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لاتى علي الضحك او لقضى علي ولكن ضحك من كان وحده لايكون على شطر مشاركة الاصحاب) (٩٩) .

نلاحظ ان كاتبنا في تعليقاته الساخرة قد اوفى النظرية حقها من الملاحظة والبحث والايضاح والتفسير والتعليل ؛ وزاد فيها باشارته العابرة الى اثر الضحك الفعال في الجهاز الهضمي ومدى تنشيطه للمعدة حين تتخم بالمآكل الثقيلة ليلا . ويرى الفيلسوف الفرنسي ايضاً في دراسته الدقيقة والممتعة للضحك والمضحك ان اهم ما يثير الضحك في الإنسان هو طباعه او بتعبير ادق عيوبه الاجتماعية التي تتنافى مع الضمير الاجتماعي في كل زمان ومكان . فالضحك اذن لجام اجتماعي يقوم ما عجز عن تقويمه القانون او النظام او العرف العام فيقول (ولعلنا لا نضحك من العيب لانه يسير بل نراه يسيراً لانه يضحكنا فما يخفف الغضب مثل الضحك بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول اننا نضحك من بعض العيوب ونعرف تمام المعرفة انها عيوب خطيرة مثال ذلك بخل ارباجو)(١٠٠) . وقد سبق الجاحظ ايضاً برغسون في هذه الملاحظة فكان عبثه بمعاصريه لجاماً اجتماعياً للافراد والجماعات ذوى العيوب الاجتماعية الخطيرة او الطبائع الانسانية الشاذة يصلحان ما اعوج من الاخلاق وعجزت عن تقويمه القوانين والانظمة والاعراف . وكان ابو عثمان واعياً لهذه الغايات والاهداف ينتقد ويهزأ ويتهكم من شرار الناس وحمقاهم بروح المشفق العطوف لا بروح التشفي والانتقام (ومتى اريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذى له جعل الضحك صار المزح جداً والضحك وقاراً)(١٠١) . وهو لايميل الى القسوة والغلظة الا مع الشعوبيين المتسترين باحد المذاهب والآخذين بالنحل الفارسية والكتّاب فيفضح دسائسهم ويسخر منهم بهجاء تهكمي قارص ونكتة سامة ؛ وهذا مالمسناه في موقفه من طبقة الكتّاب وخصوصاً احمد بن عبدالوهاب الذي صور الجاحظ عيوبه الجسمية والنفسية فهو القصير ويدعى انه مفرط الطول والمربع وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا وهو المدعي لاصناف العلم على قدر جهله بها)(١٠٢) .

وهل يلام ابو عثمان في حقده على اعدائه والزراية بهم اعلامياً والتشهير بمثالبهم وهو في

---

(٩٧) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ١٩ ومع بخلاء الجاحظ لفاروق سعد باب النصوص المختارة ص ١٢٩ .

(٩٨) الضحك هنرى برغسون ترجمة الدروبي ، وعبد الدايم ص ١٥ .

(٩٩) البخلاء طبعة دار الكتب الشعبية ص ٩٢ .

(١٠٠) الضحك هنرى برغسون ترجمة الدروبي وعبد الدايم ص ٩٤ .

(١٠١) البخلاء دار الكتب الشعبية ص ١٠ .

(١٠٢) رسالة التربيع والتدوير تحقيق فوزى عطوى ص ٩ .

موقع نضالي متقدم في دفاعه عن العرب والمعتزلة ؟ . واذا كان التهكم في الغالب القاء كلام ما وارادة نقيضه من حيث المعنى كما مر معنا في دراستنا للمعنى اللغوى والاصطلاحي للكلمة واذا كانت السخرية منهج الاقوياء كما صوره اناتول فرانس وطبقه الجاحظ يقول الكاتب الفرنسي (لا ازداد تفكيراً في حياة البشر الا ازددت اعتقاداً ان من الواجب علينا ان نجعل شهود هذه وقضاتها التهكم والشفقة . فالتهكم بابتسامة يحبب الينا الحياة والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة والتهكم الذى ارغب فيه ليس فيه شيء من القساوة انه لا يستهزىء بالحب والجمال فهو رقيق وفيه عطف يكظم من الغيظ وهذا التهكم هو الذى يعلمنا ان نسخر من الاشرار والحمقى ولولاه لافضى بنا الضعف الى كراهيتهم)(١٠٢) . فلا عجب اذن من قسوة كاتبنا على بطل رسالة التربيع والتدوير والشعوبية وكل الفرق الكلامية المناواة للاعتزال . انه بكلمة مختصرة يريد ان يروح عن نفسه حتى لا تضعف فتمتلىء بكراهية هؤلاء . والكراهية تطرف وافراط وليست توسطاً بين متطرفين ومن قال ان المناضل لا يحتكم على عقله فيلجم عواطفه ويحرص على الاتزان .

وقد لاحظ الدكتور علي بو ملحم في كتابه المناحي الفلسفية عند الجاحظ ان الروح النقدية عنده مختلطة دائما بالسخرية والمزاح والفكاهة وما اكثر تعليقات ابي عثمان في كتبه ! فهذه الميزة ذات المرمى الاصلاحي تكاد تكون طابعاً عاماً لفنه في الكتابة ونتاجه الفكرى والادبي (واذا كانت الروح النقدية عند الجاحظ مختلطة بالسخرية والمزاح والفكاهة بهذا لا يضيرها في شيء ولا تؤثر على الروح العلمية لانه يعرف كيف يمزج الجد بالهزل ومتى يقصد اليه، او ينزع عنه كما يدرك بوضوح الغاية منه)(١٠٤) .

ويأخذ الجانب التعبيرى للسخرية عنده بالاضافة للخصائص التي ذكرناها سابقاً ووقفنا عليها الامثال والشواهد بكل ما في اسلوب الرجل من خصائص . فهناك الايجاز والطبيعية والمرونة والملائمة بين اللفظ والمعنى وقاعدة لكل مقام مقال واعتماد اللحن في سبيل الواقعية (فان وجدتم لحناً او كلاماً غير معرب او لفظاً معدولا عن جهته فاعلوا انا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده) (١٠٥) . والاستعانة بضروب من المفارقات والتناقض والتقابل فقد فتنته نظرية الاوساط اليونانية فاخرجها من دائرة الفلسفة الى دائرة التعبير الفني(١٠٦) . واستغلها استغلالا بارعاً في رسالة التربيع والتدوير ولم ينسى ما للجدل والحوار والسفسطة والتلوين العقلي والصوتي في بناء جمله وتراكيبه وعباراته فوشحها بما يطرب ويعجب ويبعث على الضحك حتى من سياق الكلام وعلاقات المفردات بعضها ببعض والتهكم بواسطة تضخيم الخبر والمبالغة فيه والتقريب بين رابين او التمثيل بين حادثتين على معنى مقصود(١٠٧) . لهدم خرافة او اسطورة . فهو مثلا اذا اراد السخرية من ان الطير لا يسمى طيراً لانه يطير بجناحين قال (والملائكة تطير ولها اجنحة وليست من الطير)(١٠٨). كما انه يهدم اقوال المفسرين من ان السنور خلق من عطسة الاسد بصورة لبقة فيقول على لسان كيسان (فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنور حواءها وضحك القوم) (١٠٩) . هذا بالاضافة الى فنيته في قص النادرة والخبر وبراعته في سرد الاقصوصة والحكاية وانزال الكلام منازله في المناظرات ذات الطابع الحوارى الذى كاد يكون تمثيلياً لو عرف الجاحظ فن التمثيل .

الخاتمة

تلك هي صورة موجزة لمعالم السخرية في ادب الجاحظ حاولنا قدر الامكان الاحاطة بجوانبها المختلفة . وهذه الظاهرة كما راينا لم تكن وليدة قبح الرجل وعيوبه الجسدية ولئن سخر من دمامته وقصره وسارع الى التشهير بنفسه وتعرية هذه العيوب قبل ان يسبقه الناس الى ذلك فقال (ما اخجلني الا امراتان رايت احداهما في العسكر وكانت طويلة القامة وكنت على طعام فاردت ان امازحها فقلت لها انزلي كلي معنا . فقالت اصعد انت حتى ترى الدنيا)(١١٠) . ونلاحظ في هذه النادرة افتقار

---

(١٠٢) الجاحظ معلم العقل والادب شفيق جبرى ص ٢٠٠ .
(١٠٤) المناحي الفلسفية عند الجاحظ الدكتور علي بو ملحم ص ١٥٢ .
(١٠٥) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ٨٢ .
(١٠٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي شوقي ضيف ص ١٨٠ .
(١٠٧) النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ الاب فكتور شلحت اليسوعي ص ١٦٤ .
(١٠٨) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ٣٠ .
(١٠٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٦٥ .
(١١٠) سرح العيون لابن نباتة ص ٢٥٠ .

المراة وابي عثمان الى ميزة الاعتدال والتمام،وخروج الاشياء عن الحد في الخلق . واما الاخرى (اتتني امراة وانا على باب دارى فقالت لي اليك حاجة واريد ان تمشي معي فقمت معها الى ان اتت الى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا . وانصرفت . فسالت الصائغ عن قولها فقال : انها اتت لي بفص وامرتني ان انقش عليه صورة شيطان فقلت لها ياستي مارايت الشيطان فاتت بك وقالت ماسمعت) (١١١) . وليست وقفا على تشاؤم ابي عثمان وكبريائه ومخالطته للظرفاء وتقززه من القبح والبشاعة وتعشقه للجمال وتقصي مواطن الروعة والحسن في كل جميل حتى في رشاقة اسمه الاصلي عمرو وسهولة مخارج حروفه . المسالة ببساطة منوطة بطبيعة الجاحظ ومزاجه فقد كان هذا الاديب مطبوعاً على الضحك والسخرية والدعابة والتهكم ولهذا حفل ادبه على اتساع اغراضه ومراميه بكل مايمت للفكاهة بصلة قريبة او بعيدة . وماظنك باديب يوظف الفكاهة في خدمة العلم والمتعلمين لتطرد السام عن القراء وتحبب اليهم المعرفة ، ويروى بأسلة لسانه ما وقع له من حوادث في قالب فكه يتسم بالظرف والطرافة ، وطواعية في اللغة ومرونة في الانشاء والترسل .

وقصارى القول فقد مهرت السخرية بنوعيها اللطيف والجارح آراء الجاحظ النقدية واتجاهاته الفكرية بمنهج خاص في الكتابة ، وان مجال الكلام عن السخرية والتهكم والفكاهة في ادب ابي عثمان وتقصي المميزات الاسلوبية التي طبعت طريقته في التفكير والتعبير وخاصة في الجانب الهزلي بطابع جاحظي فريد مجال واسع فسيح ، فاديبنا موسوعي النزعة ، وهو نسيج وحده بين ادباء العربية القدامى، عاش في صراع عنيف مع الشعوبية والفرق الاسلامية وغير الاسلامية التي ناوات المعتزلة وابتلى بخصوم الداء من الكتّاب الصقوا به شتى المثالب فلم يضعف او يتخاذل وما لانت قناته لهذه الافتراءات وتلك الاكاذيب ، بل كال لهم الصاع صاعين بقصة هنا ونادرة هناك وحادثة مضحكة منتزعة من صميم الحياة هنالك . وهو في كل ذلك الاديب الساخر المتمكن من اللغة وبيانها والناقد الخفيف الظل والمحدث اللبق والعالم الخبير بالطباع ومواطن الضعف والقوة في نفوس البشر .

وهكذا كانت السخرية طبعاً فيه فتنبه الى اثر الطبائع التي فطر عليها الناس في سلوكهم والوان حياتهم وقادته بعد ان عاين ميله الطبيعي اليها في حركاته وسكناته بشكل تجريبي الى نظرية في المعرفة خالف فيها مفكرى عصره من علماء الكلام . وعلى هذا الاساس فالمعرفة عنده طبع والبخل طبع وكذلك الكرم والجبن والفكاهة والتهكم والسخرية وكل ما يتصل بالانسان والعالم من فطرة وعقل وسنن وقوانين .

(١١١) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

* * *

ثبت المراجع والمصادر

(١) القرآن ـ سورة هود الآية ١٠٤

(٢) البغدادى (ابو منصور) الفرق بين الفرق دار المعرفة لبنان

(٣) ابن خلكان (عبد الرحمن) وفيات الاعيان مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨

(٤) الزبيدى ـ تاج العروس دار صادر بيروت

(٥) الجوهرى ـ الصحاح في اللغة والعلوم اعداد وتصنيف نديم مرعشلي ، واسامة مرعشلي . دار الحضارة العربية، بيروت ١٩٧٤ .

(٦) ابن منظور ـ لسان العرب الجزء ١٦ طبعة دار المعارف بمصر

(٧) الجاحظ (عمرو بن بحر) البخلاء دار الكتب الشعبية بيروت ١٩٧٧

(٨) الجاحظ (عمرو بن بحر) البخلاء تحقيق الدكتور طه الحاجري المقدمة دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

(٩) الجاحظ (عمرو بن بحر) نشرة وزارة التربية والتعليم بمصر

(١٠) الجاحظ (عمرو بن بحر) البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر ببيروت

(١١) الجاحظ (عمرو بن بحر) مجموع رسائل الجاحظ تحميق باول كرواس ومحمد طه الحاجري القاهرة ١٩٤٣

(١٢) الجاحظ (عمرو بن بحر) مجموعة رسائل الجاحظ طبعة ساسي القاهرة ١٣٢٤ هـ

(١٣) الجاحظ (عمرو بن بحر) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة ١٩٤٥

(١٤) الجاحظ : عمرو بن بحر) آثار الجاحظ تحقيق عمر أبو النمر مطبعة النجوى ببيروت ١٩٦٩

(١٥) الجاحظ (عمرو بن بحر) العثمانية تحقيق عبد السلام هارون دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٥ .

(١٦) الجاحظ عمرو بن بحر رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٥

(١٧) الجاحظ (عمرو بن بحر) رسالة في الحكمين ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت

(١٨) الجاحظ (عمرو بن بحر) ثلاث رسائل تحقيق يوشع فنكل ، المطبعة السلفية ١٣٤٤ هـ

(١٩) الجاحظ (عمرو بن بحر) التربيع والتدوير تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب ببيروت ١٩٦٩ .

(٢٠) الجاحظ (عمرو بن بحر) التربيع والتدوير تحقيق شارل بلات دمشق ١٩٥٥ .

(٢١) الجاحظ : عمرو بن بحر ، كتاب الرد على النصارى على هامش الكامل . مجموعة الفصول المختارة ؛ اختيار عبد الله بن حسان مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٢٤ هـ

(٢٢) الجاحظ ؛ عمرو بن بحر ؛ كتاب الرد على النصارى على هامش الكامل الجزء الثاني

(٢٤) الخياط المعتزلي (ابو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان) كتاب الانتصار المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٧ .

(٢٥) الاشعري (ابو الحسن علي بن اسماعيل) مقالات الاسلاميين بتحقيق محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

(٢٦) الخفاجي : شهاب الدين احمد بن محمد ؛ طراز المجالس المطبعة الوهبية ١٢٨٤ هـ

(٢٧) الروائع (فؤاد افرام البستاني) رقم ١٨ نقلا عن الانباري ، نزهة الالباء في طبقات الادباء مصر ١٨٧٦ طبعة الروائع ١٩٥٥ .

(٢٨) ابن قتيبة الدينوري (ابو محمد عبدالله بن مسلم) كتاب تاويل مختلف الحديث ،دار الكتاب العربي ببيروت

(٢٩) ابن نباته (جمال الدين) سرح العيون دار الفكر العربي ١٩٦٤ .

(٣٠) الحاجري (الدكتور محمد طه : الجاحظ حياته وآثاره دار المعارف بمصر ١٩٧٦ .

(٣١) ابو ملحم (الدكتور علي) المناحي الفلسفية عند الجاحظ دار الطليعة ببيروت ١٩٨٠ .

(٣٢) بلبع (عبد الحكيم) النثر الفني واثر الجاحظ فيه مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥ .

(٣٣) برغسون (هنري) الضحك تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم ، القاهرة دار الكاتب المصري ١٩٤٨ .

(٣٤) جبر (الدكتور جميل) الجاحظ ومجتمع عصره ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥٨ .

(٣٥) جبر (الدكتور جميل) ابو عثمان الجاحظ والبيان والتبيين واهم الرسائل ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦٨ .

(٣٦) جبري (شفيق) الجاحظ معلم العقل والادب ، دار المعارف القاهرة ١٩٤٨ .

(٣٧) سعد (فاروق) مع بخلاء الجاحظ دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٨

(٣٨) شلحت (الاب فيكتور) النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

(٣٩) ضيف (الدكتور شوقي) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .

(٤٠) ياقوت ، معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية دار احياء التراث العربي

(٤١) ياقوت ، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب تحقيق مارجليوث ١٩٤٣ (نقلا عن الروائع جزء ١٨ ١٩٥٥ .

WWW.ATTAWEEL.COM